٢٠

علاقة الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي بالشيخ سليمان الباروني باشا

أ. د. محمَّد بن قاسم بوحجَّام
أستاذ التعليم العالي جامعة الحاج الأخضر، باتنة - الجزائر
nacer.b.mohamed@gmail.com

ملخَّص:

تعتمد الورقة المنهج الوصفي التَّحليليَّ لبيان العلاقة بين الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي والزَّعيم المغاربيِّ الشَّيخ سليمان باشا الباروني، في أثناء إقامة الأخير بأرض عُمان. هذه العلاقة التي تجلَّت في السعي للإصلاحات السِّياسيَّة والإداريَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والصّحيَّة والفكريَّة والتَّعليميَّة التي اقترحها الشيخ الباروني على الإمام محمَّد الخليلي. وتكشف الورقة عن الأبعاد الحضاريَّة في تلك الإصلاحات، وفعاليَّتها في النُّهوض بعُمان في مختلف المجالات، والوقوف عند بعض المعوِّقات التي وقفت عقبات في طريق الزعيمين لتنفيذ برامجهما، وما قاما به من جهود لتذليل تلك الصُّعوبات. وتؤكد الورقة أن الأبعاد الاستراتيجيَّة والحضاريَّة لتلك العلاقة تدلُّ على عمق الصِّلات بين عُمان والمغرب الإسلامي، وقوَّة شخصيَّة الرَّجلين في تسيير شؤون الدَّولة، ومكانة الشُّورى في تدبير الأمور، وشموليَّة النَّظرة والمعالجة للقضايا والمسائل.

كلمات مفتاحيَّة: الإمام الخليلي. سليمان الباروني. علاقات. إصلاح. إدارة الدولة.

مقدِّمة:

تبرز الورقة العلاقة بين الزَّعيمين الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي (ت ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م) والشَّيخ سليمان الباروني باشا (ت ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م) والتي تجلَّت في السعي للإصلاحات السِّياسيَّة والإداريَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والصِّحِّيَّة والفكريَّة والتَّعليميَّة[١]. فقد كان الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي - رحمه الله - شخصيَّة متميِّزة في علمها وأخلاقها وقوَّتها ومكانتها المرموقة والفاعلة في تاريخ عُمان ومسيرتها الحضاريَّة وتطوير الحياة في هذا القطر. فالإمام الخليلي رجل أخلص لله دينه، ووفَّى بما عليه نحو وطنه. وبصفته إمام المسلمين، حكم الإمام الخليلي داخليَّة عُمان فترة من الزَّمن، كان له فيها بصمات بارزة، في التَّخطيط والتَّدبير والتَّسيير، واختيار الرِّجال الذين يقومون بأعباء الوطن، ويرفعون التَّحدِّي لتنميته وتطويره، بكلِّ ما أتيح لهم من جهد وقوَّة وإمكانات. ومن الشَّخصيَّات التي وقع اختيار الإمام الحكيم عليها في هذه السَّبيل الزَّعيم والبطل الشَّيخ سليمان بن عبد الله الباروني باشا - رحمه الله - الرَّجل الذي كان له نشاط كبير في عُمان، وآزر الإمام في تسيير شؤون دولته وتدبير أمورها، فكان الرَّجلَ المناسبَ، في المكان المناسب، وفي الظَّرف المناسب.

إنَّ الشَّيخ سليمان الباروني رجل المواقف والتَّحدِّيات، والتَّدبير والتَّسيير، والفكر والعمل، فقد عرك الحياة وعجم عودها، وتلقَّى أنواعًا من الإعنات والمتاعب؛ ما أكسبه رسوخًا في المبادئ ومرونة في التَّحرُّك، وحسمًا وحزمًا في تسيير الأمور ومواكبة الحياة؛ فكان بكلِّ تلك الصفات هو الرَّجل الذي تحتاج إليه عُمان في تلك الظُّروف التي أقام فيها في أرضها. فقد كان الشيخ الباروني متعاونا متفهِّما

---

١) الباحث بذل جهدا كبيرا في سرد المعلومات، لكن بعضها خلا من التوثيق من المصادر المعتمدة، فكان من الأهمية بمكان العودة إلى الوثائق التي صدرت من الإمام الخليلي - رحمه الله - بيده أو بأمره وغير ذلك من المصادر الأساسية، ومن تلك المعلومات ما أورده من تعيين الإمام للشيخ الباروني رئيسا للوزارة العمانية، فهل يوجد في عهد الإمام الخليلي ما يسمى بالوزارة؟ ومن ذلك ما جاء: "بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، من إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله الخليلي إلى جماعة المسلمين، ليعلم الحاضر الغائب أنِّي فوَّضت الأمر في تنظيم المملكة تنظيمًا صالحًا للشَّيخ الباروني، فبيده الملكيَّة والعسكريَّة والماليَّة والسِّياسة الدَّاخليَّة والخارجيَّة، فمن يخالفه أو يقف في سبيل أعماله الإصلاحيَّة يعاقب، ولا يلوم إلاَّ نفسه"، فقد وثَّقه من كتاب "سليمان باشا الباروني في أطوار حياته" فقط، مع أن النص نسبه للإمام، ألا توجد وثيقة تدلُّ عليه؟ ومتى كتبت؟ ومن كتبها؟ هل الإمام نفسه أو عن إملائه أو بأمره؟ وهل كانت لفظة "الملكية" واردة في خطابات الإمام - رحمه الله - ؟ وما المراد بها؟ تساؤلات متعدِّدة تجعل القارئ بحاجة إلى التأكد من واقعية هذا النص المنسوب للإمام الخليلي - رحمه الله -. (المحرِّر)

للأوضاع التي كانت تمرُّ بها عُمان، ومدركًا للدَّور الذي يقوم به؛ لإنقاذ البلاد ممَّا يسيء إليها، أو يضرُّ بها، ومؤمن بضرورة التَّعاون مع الجميع في سبيل المصلحة العامَّة. كما كان مدركا أنَّ العمل القويم يقتضي التَّرفُّعَ عمَّا يضرُّ بالوَحدة، ويمسُّ الاتِّحاد، ويتطلَّب عدمَ النَّظر إلى الخلافات الشَّخصيَّة والاختلاف في الرُّؤى على أنَّها هي الأولى بالأهمية والمعالجة، وإنَّما يجب التَّفكير فيما يعين على التَّعاون للنُّهوض بالبلاد. فهذا ما قام به الشَّيخ سليمان الباروني؛ إذ عمل في آن واحد على مؤازرة سلطان مسقط وإمام داخليَّة عُمان، وقام بالتَّنسيق بين الجهتين بصفة عُمان بلدًا واحدًا، وأنَّ دوره هو العمل في هذا الدَّرب.

يتناول هذا البحث علاقة الشَّيخ سليمان الباروني بالإمام محمَّد الخليلي؛ بالتركيز على سيرة الشَّيخ الباروني وجعلها محور الدِّراسة؛ لأنَّه من خلال دراسة أعمال الشَّيخ سليمان الباروني، تتكشف شخصيَّة الإمام الخليلي وتبرز عظمته وعبقريته، وكيفية تعامله مع مواقف الباروني وأفكاره لتدبير شؤون دولته؛ وبذلك فإن البحث يناقش المواقف التي توضح العلاقة بين الإمام الخليلي والزَّعيم الباروني، وتكشف عن الأبعاد الحضاريَّة فيها، ودورها في النُّهوض بعُمان في مختلف المجالات. كما يحلل البحث بعض المعوِّقات التي وقفت عقبات في طريق عمل الرَّجلين لتنفيذ برامجهما، وما قاما به من جهود لتذليل تلك الصُّعوبات. والهدف من ذلك الإفادة والاعتبار بما حدث، لنتعلَّم من التَّاريخ، ونبني عليه حياتنا، بتبنِّي الإيجابيات، وتلافي السَّلبيَّات، ومن قرأ التَّاريخ بوعي وحلَّله بعمق زاد عقله، وخطَّط لحياته بعناية ودراية.

اتِّصال الإمام الخليلي بالشَّيخ الباروني:

حين نفهم جيِّدا عمق العلاقة بين الإمام الخليلي والشيخ الباروني ندرك قوَّتها ووثوقها، فبمجرَّد أن حلَّ الشَّيخ سليمان الباروني بمسقط، الذي سبقته إليها شهرته وصيته، بادر الإمام الخليلي فأرسل إليه رسالة يعرب له فيها عن سروره بمقدمه المبارك إلى عُمان، وممَّا ورد في الرِّسالة ما يأتي:

"من إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله بن سعيد الخليلي إلى أخيه ذي الشَّرف الباذخ والمجد الشَّامخ، المجاهد في سبيل الله، المحامي لدينه سليمان بن عبد الله

الباروني. أمَّا بعد: فإنَّا نحمد الله إليك، لا زلت أخانا محافظًا شرف حريَّتك، ساعيًا في عزِّ استقلال بلادك. ألا وإنَّ أعلام مجدك منشورة، وسيوف عدلك مشهورة، فلله درُّك! حيث أنت هكذا، هكذا وإلاَّ فلا، لا. الدَّاعي إلى تحرير الكتاب إليك، بعد إهداء السَّلام والتَّحيَّة والإكرام، إعلامك بأنَّ إخوانك أهل عُمان مسرورون بسلامتك وصحَّتك، مستبشرون بقدومك وطلعتك، وقد وجَّهنا إليك هذا الرَّسول؛ طالبين منك الوصول على بركة الله زائرًا إخوانك مشرِّفًا أوطانك. فاضرب لنا موعدًا لنوجِّه إليك رجالاً من الخاصَّة، رفقاء الطَّريق. وأخبر رسولنا بكلِّ ما يلزم لنحيط بذلك علمًا، والله الميسِّر، والسَّلام"[1].

وممَّا يقرأ في هذه الرِّسالة:

- المحبَّة التي يكنُّها الإمام الخليلي لضيف عُمان الوافد إليها من بعيد.
- بمجرَّد وصول الشَّيخ سليمان الباروني إلى مسقط ولقائه بالسُّلطان تيمور بن فيصل، رغب الإمام أن تحظى داخلية عُمان بزيارته.
- سمعة الشَّيخ سليمان الباروني سبقت قدومه إلى عُمان، فما أن وضع قدميه فيها حتَّى تطلَّع الإمام الخليلي إلى توطيد العلاقة به، ومن وراء هذه العلاقة الاستعانة به في تدبير شؤون ما هو تحت كفالته وحوزته من الأراضي العُمانيَّة، وتسييرها بما يملك من حنكة وتجربة في تنظيم الأعمال التي تقوم بالبلاد وتنهض بها، وتسعى لبناء دولة قويَّة، تقوم على أسس متينة، تحفظ لها هيبتها ومكانتها بين الدُّول.

إن السُّمعة الطَّيِّبة التي تمتَّع بها الشَّيخ سليمان الباروني تعبِّر عنها رسالة أخرى بعث بها الإمام إلى الشَّيخ الباروني ردًّا وتحيَّة له على إجابة الشيخ الباروني لدعوة الإمام لزيارته، فقد جاء في رسالة الإمام إلى الشيخ الباروني: "من إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله الخليلي، إلى حضرة من يعوَّل عليه في المهمَّات، ويستضاء

---

١) أبو اليقظان، إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، المطبعة العربيَّة، الجزائر، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م، ج١، ص٢٠٩-٢١٠. حرِّرت الرِّسالة يوم: ١٣ محرَّم ١٣٤٣هـ. يذكر محمَّد بن عبد الله السَّيفي انه يملك نسخة مخطوطة من هذه الرِّسالة في مكتبته. ينظر: النُّمير، حكايات وروايات، الإباضيَّة في مصر وليبيا والجزائر وتونس وما يتبعها من الأقاليم المغربيَّة، ط١، مكتبة وتسجيلات غاية المراد، نزوى، سلطنة عمان، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ج٨، ص١٣٠.

بنبراس رأيه في ديباجي الملمَّات، المحافظ على شرف البلاد، الحائز من المجد الطَّارف والتِّلاد، الأخ الشَّهير سليمان بن عبد الله الباروني، أدام الله إجلاله، وأسبغ عليه من القبول ظلاله، سلام عليك، لا زالت دوحة عليائك مخضرَّة العود، مبتهجة بثمار السُّعود، باسمة عن زهر البشرى بكلِّ موعود، وما هنا من المعلومات إلاَّ ما يسرُّ المسلمين، ويقرب النَّائين، وكتابك الكريم الذي أشرقت شموس تحقيقه، وأزهرت في سماء الفهوم نجوم تدقيقه، قد وصل وسررنا بما تضمَّنه من الأخبار بصحَّتك وسلامتك، وقوَّى أملنا بما يشفي الغليل، ويبرئ العليل، وها نحن ذا رافعون إلى الله تعالى أكفَّ التَّضرُّع مبتهلين إليه أن يسهِّل نيل المطلب، والله حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم. ٨ صفر ١٣٤٣"[١]. ومنذ الأيام الأولى لوصوله أرض الإمامة، أسند الإمام الخليلي إلى الشيخ سليمان الباروني القيام بالعديد من المهام والمسؤوليات على الصعيدين الخارجي والداخلي.

المهام والإصلاحات على مستوى العلاقات الخارجيَّة:

تتناول الورقة هذا الإطار من محورين، يعنى الأول بترشيح الإمام محمَّد الخليلي الشيخ الباروني للوساطة في إنهاء الصراع الدائر في الحجاز بين الملك عبد العزيز آل سعود والشريف علي بن الحسين. وأمَّا المحور الثاني فيتناول وجهة نظر الشيخ الباروني في الحفاظ على العلاقة الودية مع الدولة السعوديَّة.

القيام بالصلح في الصراع الدائر بين الملك عبد العزيز آل سعود والشريف علي بن الحسين:

فقد أسند الإمام الخليلي إلى الشيخ الباروني القيام بمحاولة الصُّلح بين الزَّعيمين اللَّذيْن يتقاتلان في الأرض الحجازيَّة عبد العزيز آل سعود ملك نجد وعلي بن الحسين ملك الحجاز. وتكليف الإمام- وكذا السُّلطان تيمور بن فيصل- الشَّيخَ سليمان الباروني، يدلُّ على الثِّقة الذي وضعها الإمام والسُّلطان في هذا الوافد الجديد الكبير على أرض عُمان، ثمَّ على المكانة الكبيرة التي يحظى بها عند

١) الطَّائي، عيسى بن صالح: القصائد العمانيَّة في الرِّحلة البارونيَّة، ط١، راجعه وصحَّحه سلطان بن مبارك بن حمد الشّيباني، نشر ذاكرة عمان، مسقط، سلطنة عمان، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص١٠٢.

زعماء عُمان وكبرائه، وتكشف عن بداية علاقات مُهمَّة ستتبع هذه المَهمّة المبكِّرة في بداية اتِّصال الزَّعيمين به. ومن هذا التَّفويض الشَّريف يمكن الدخول إلى أعماق هذه العلاقة التي تربط الإمام الخليلي بالشَّيخ سليمان، وكشف أبعادها، ثمَّ السير نحو المنجزات التي حقَّقتها هذه الصِّلة الوثيقة، ومنها الوصول إلى إدراك بعد نظر الإمام في اختيار الرِّجال الذين يعتمد عليهم في البناء والتَّنمية والإصلاح وتشييد صرح الدَّولة الحديثة.

إنَّ انتقاء الرَّجل الصَّالح للمهمَّات الصَّعبة جاء في الرِّسالة التي أرسلها الإمام الخليلي إلى الشَّيخ سليمان الباروني قائلا فيها: "من إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله الخليلي إلى جناب المجاهد في سبيل الله الغيور في دين الله، أخينا الشَّيخ سليمان الباروني باشا، السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حيث إنَّ العالم الإسلامي في اضطراب واهتمام بقضيَّة الخلافة والأماكن المقدَّسة، وقد تقرَّر – على ما بلغنا – عقد مؤتمر لأجل ذلك، فإنَّنا نكلِّفُ جنابك باسم الأمَّة العُمانيَّة أن تحضر هذا المؤتمر الذي سيعقد لهذا الغرض الدِّيني السَّامي في مصر، أو غيرها من البلاد الإسلاميَّة. وليكن رأيك في مسألة الخلافة مطابقًا لقواعد الشَّرع الصَّحيحة، وهي لا تخفى عليك.

أمَّا مسألة الأماكن المقدَّسة، فليكن رأيك فيها مبنيًّا على حمايتها من عبث العابثين، ووقايتها من تسلُّط كلِّ يد أجنبي عليها، مهما كانت مقاصدها وصبغتها، وقد استحسنَّا تكليف جناب السُّلطان إيَّاك بالتَّوجُّه إلى الحجاز؛ مندوبًا من طرفه، وحاملاً كتبًا نصيحة منه إلى المتحاربين حول بيت الله الحرام، فنعم الرَّأي رأيتماه؛ فإنَّ المسألة من أهمِّ ما يجب أن يهتمَّ به كلُّ مسلم، وإنَّنا لا نزال في شغل من ذلك، والمنتظر من جنابك موافاتنا بالأخبار الصَّحيحة، بدون فاصلة، والله تعالى نسأله أن يوفِّقك، والمسلمين أجمعين، إلى ما فيه خير دينهم ودنياهم، آمين. رمضان ١٣٤٣هـ"[١].

فبقدر ما تحمل هذه الرِّسالة، وهذا التَّكليف، من قيمة معنويَّة تتمثَّل في اهتمام الإمام الخليلي بأمور المسلمين داخل عُمان وخارجه، وحرصه على وحدة المسلمين

١) مجلَّة المنهاج، أبو إسحاق اطفيش الجزائري، القاهرة، ربيع الأول، ١٣٤٣هـ، م١، ج٣، ص٢٢٩.

وعلى أمنهم وسلامتهم، فإنَّها تتضمَّن - أيضًا - الثِّقة التي وضعها الإمام في شخص الباروني؛ بإرساله سفيرًا له للقيام بهذه المهمَّة.

الدَّعوة إلى المحافظة على العلاقة الودِّيَّة مع الدَّولة السعوديَّة:

تنمية للوعي السِّياسي لدى الفرد العُماني، وتقديرًا لحرمة الجوار، ورغبة في الحفاظ على العلاقات التي تضمن المحافظة على الأمن والاستقرار في المنطقة، دعا الشَّيخ سليمان الباروني الحجَّاج العُمانيِّين إلى التَّمسُّك بعلاقة الودِّ مع الدَّولة السعوديَّة. وهو بهذا النِّداء، وهذا التَّنبيه، يريد تنمية الحسِّ السِّياسي والوعي والحكمة في التَّصرُّف والسُّلوك بما يضمن تحقيق المكاسب، والنَّأي عن الاستسلام للعواطف والمشاعر الملتهبة التي قد تأتي على كلِّ شيء في لحظة نزوة أو استثارة غير مدروسة وغير مقدَّرة أحسن تقدير. ويأتي هذا التحذير بعد ما حصل من توتُّر في العلاقات بين أبناء المنطقة، فهو يخاف أن يكون ردُّ الفعل غير محمود العواقب.

ففي رسالة توجيهيَّة أرسلها الشيخ الباروني إلى الحجيج الإباضيَّة رجاهم فيها الالتزام بالنِّظام الذي تفرضه وتقرُّه الدَّولة السعوديَّة، جاء ما يأتي: "ولتكن حركاتكم مدَّة إقامتكم في البلاد المقدَّسة موافقة لقوانين الحكومة المحلِّيَّة المطابقة للحقِّ، واجتنبوا - بقدر الإمكان - ما يكدِّرها، وراجعوها برفق فيما تضطرُّون فيه مراجعتها بواسطة عقلائكم الممارسين لأحوال الحكومات"[١].

فما هي التَّوجيهات المضمَّنة في هذه الفقرة القصيرة؟

- التَّربية الدِّينيَّة والأخلاقيَّة في التَّعامل مع الآخر.
- التَّربية السِّياسيَّة التي تضمن التَّعامل مع الحكومات، المبنيَّ على الاحترام والتَّقدير ومراعاة سياسة كلِّ بلد وأنظمته.
- طرق المطالبة بالحقوق بحسٍّ حضاريٍّ، والبعد عن التَّهوُّر والخور في استرجاع الحقوق المسلوبة.

١) من رسالة مخطوطة من الباروني إلى الشَّيخ سالم بن محمَّد الرَّواحي، ينظر: سليمان باشا الباروني وحضوره في الثقافة العمانيَّة، مج٢، ص٤٦.

- إسناد الأمور إلى أصحابها، والرُّجوع إلى أهل الرَّأي والمشورة، وإلى المجرِّبين والممارسين والعارفين بأحوال الحكومات والسُّراة وعلية القوم؛ حتَّى لا تعود الممارسات بالوبال والثُّبور على من جَانَبَ الصَّواب، وانحرف بعاطفته ومشاعره وقلَّة تجربته؛ ممَّا قد يسبب ضياع حقوقه، وعدم تحقيق مطالبه.

وقد نبَّه سليمان الباروني - أيضًا - إلى عدم دخول البلاد في صراعات مع أيِّ دولة، إنَّما عليها بالعمل على ترتيب البيت، والاشتغال بالإصلاح وتنمية البلاد: "ومن رأي الباروني باشا في سياسة الدَّولة التَّباعد عن معاداة أي دولة من الدُّول أجنبيَّة كانت أو مسلمة، والاشتغال بإصلاح الدَّاخليَّة: علمًا واقتصادًا، عسكريًّا ومدنيًّا وصحِّيًّا"[1].

أليس في هذا التَّوجيه حكمة ودراية ورؤية عميقة، ودليل على جدارة الشَّيخ سليمان بتوليِّ الوزارة لترشيد الحياة في عُمان، في تلك الظُّروف الدَّقيقة التي تمرُّ بها؟! ألاَ يدلُّ هذا مرَّة أخرى على حسن العلاقة بينه وأبناء عُمان فضلا عن سراتها وزعمائها؟! إن هذه العلاقة الوثيقة بين الشيخ الباروني وبين أحد زعماء عُمان، وهو الإمام محمَّد الخليلي، هي التي سمحت للشَّيخ أن يقترح، بل يطلب من الإمام التَّفرُّغ لتنظيم سياسة الدَّولة، وإدارة شؤونها، وترك مسائل القضاء والفتوى إلى القضاة والعلماء؛ وفي هذا توزيع للمسؤوليَّات، وحرص على التَّركيز على العمل والإتقان؛ بالتَّفرُّغ لجانب من أعمال الدَّولة، وترك بقيَّة الأعمال للآخرين؛ وبهذا المنهج وهذه الخطَّة تُنظَّمُ المسيرة، ويَتحسَّن الأداء.

المهامُّ الداخليَّة:

تقول زعيمة بنت سليمان الباروني: "ظهر الباروني في عُمان بمظهر الرَّجل العفيف والوطني الغيور على دينه وأمَّته الإسلاميَّة، فأصبح علمًا من أعلام الأمَّة الإسلاميَّة، نال إعجاب وتقدير سلطان السَّاحل تيمور بن فيصل، كما نال تقدير واحترام إمام الدَّاخل محمَّد بن عبد اللّٰه الخليلي، اللَّذين قبلا مساعيه التَّصالحيَّة بينهما، وعلى إثر ذلك قلَّده السُّلطان تيمور بن فيصل الوسام

١) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص٣١.

البوسعيديَّ، وهو أرقى وسام يمنحه السُّلطان، وعيَّنه الإمام رئيسًا لوزرائه"[١]. فتنوعت المهام والمسؤوليات التي أوكلها الإمام الخليلي إلى الشيخ سليمان الباروني على الصعيد الداخلي، ومنها ما يلي:

تعيين الإمام الخليلي الشَّيخ سليمان الباروني رئيسًا للوزارة العُمانيَّة:

من مظاهر العلاقة الكبيرة بين الرَّجلين والقائدين تعيين الإمام الخليلي الشَّيخ سليمان الباروني رئيسًا للوزارة العُمانيَّة، وتفويضه في تنظيم الدَّولة تنظيمًا عصريًّا، يستجيب للتَّطوُّرات والمستجدَّات، ويلبِّي الأهداف المنشودة للنُّهوض بعُمان بقوَّة. ولا شكَّ أنَّ لكثرة أسفار الشَّيخ سليمان في الأوطان العربيَّة والأوروبيَّة، وتقلُّده المسؤوليَّات الإداريَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة في مسيرته الجهاديَّة والتَّحريريَّة، ولكثرة ما عاناه في حياته من مضايقات وملاحقات، وما تعرَّض له من إذايات من الطُّغاة والعتاة وصنَّاع القرار في مختلف المستويات، وما قاساه جرَّاء النَّفي والسَّجن والاعتقال والإقامات الجبريَّة الصَّادرة من جهات عليا في مختلف السُّلطات، إلى جانب تمتُّعه بفكر عميق، ورؤى ثاقبة في الأمور السِّياسيَّة والثَّقافيَّة والتَّربويَّة، وامتلاكه نظرات استشرافيَّة، وقدرته على مواصلة العمل الدَّؤوب من دون كلل ولا ملل ولا يأس، مع ما منحه الله من خلال وصفات الشَّجاعة والجرأة، والإقدام والصدح بالحقِّ، ورفض أنصاف الحلول في القضايا المصيريَّة والمسائل الحسَّاسة؛ كان له أثره في تكليفه بهذا المنصب الكبير المهمِّ.

فقد اكتسب الشيخ الباروني تجارب عديدة مكَّنته من أن يتعرَّف على بعض الوسائل التي تساعد على الإصلاحات الضروريَّة للنُّهوض بالمجتمع؛ وهو ما يحتاجه الشَّعب العُمانيُّ، الذي تحمَّس الباروني للقيام بشؤونه، بطلب من السُّلطان تيمور والإمام الخليلي. وتلك المعطيات هي التي رشَّحت سليمان باشا لكي يكون

---

١) بحوث ندوة سليمان باشا الباروني وحضوره في الثَّقافة العمانيَّة، نشر مركز الدِّراسات العمانيَّة، جامعة السُّلطان قابوس، سلطنة عمان. ووحدة الدِّراسات العمانيَّة، جامعة آل البيت، الأردن، ٢٠١٣م، مج١، ص١١٨. ينظر: الباروني، زعيمة: سليمان الباروني، تعريف موجز، ص١٩.

في سنة ١٩٣٨م تلقَّى دعوة رسميَّة من السُّلطان سعيد بن تيمور ليكون مستشارًا له في مسقط، عاصمة السَّاحل، وبذل جهودًا معتبرة محمودة في إصلاح حال البلاد... كما ولاه نظارة شؤون الولاة، فقام بإصلاحات سياسيَّة وعلميَّة وإداريَّة وعسكريَّة... سليمان باشا الباروني وحضوره في الثقافة العمانيَّة، مج١، ص٣٥٨. ذُكرَ أنَّ سعيد بن تيمور طلب منه أن يتولَّى وزارة الأوقاف، فاعتذر له. ينظر: القصائد العمانيَّة في الرِّحلة البَارونيَّة، ص١٦.

أحد الرِّجال الذين يتولَّون تسيير شؤون الدَّولة، وسمحت للإمام أن يجرؤ على تكليف رجل غير عُماني، يجيد قواعد البناء الحضاري؛ ليقود مسيرة تطوير الدَّولة والنُّهوض بالبلاد[١].

ولنقف قليلاً مع هذا التَّفويض ونوضِّح بعض الحيثيَّات، ونسرد بعض المعطيات المهمَّة، التي تكشف عن شخصيَّتي الرَّجلين: الإمام الخليليِّ والشَّيخ سليمان الباروني، ونبيِّن العلاقة الإستراتيجيَّة والعميقة التي تربط الرَّجلين.

عرف أهل عُمان عن الشَّيخ سليمان الباروني - منذ حلَّ ببلادهم في مسقط أوَّلاً- حرصه على جمع كلمة العُمانيِّين على المصلحة العامَّة للوطن، وتوحيد صفِّهم؛ إذ كان يقوم بالنَّصيحة والإرشاد والدَّعوة إلى تحقيق هذه المقاصد النَّبيلة الضَّرورية للنُّهوض بالبلاد، بل ظلَّ هذان المطلبان همَّه الكبير واهتمامه العظيم، "أصبح لا همَّ له إلاَّ النَّصيحة والدَّعوة إلى جمع الكلمة بالاتِّحاد والنُّهوض لمجاراة الأمم الحيَّة، فكان حديثه وهو راكب وسائر وجالس وعلى فراش المرض، الذي كان ينتابه كلَّ مدَّة في أكثر بلاد عُمان"[٢].

للكفاية التي كان يتمتَّع بها الشَّيخ سليمان الباروني، ولما أظهره من رغبة صادقة في الإسهام في إيقاظ أهل البلد للقيام بواجبهم نحو وطنهم بمختلف الوسائل والطُّرق والأساليب، وبجهاده واجتهاده الدَّائبين، "كلِّف من طرف رجال الإمام بقبول منصب يليق به، فلم يقبل؛ لعلمه بأنَّ فكرته التي كان يبثُّها لم تنضج، ولو أنَّه قبل منصبًا، مهما كان في ذلك الوقت لما تَوَفَّق بسهولة إلى إتمام مراده، ولحصلت عراقيل كثيرة في سبيل ما يقصده من الإصلاح"[٣]. لذلك، لم يقبل الشَّيخ الباروني أيَّ منصب عُرِضَ عليه قبل أن يخطِّط لمشروعه الذي يرى فيه عملاً كبيرًا في النُّهوض بعُمان، لكن بعد أن لمس بالبرهان والدَّليل أنَّ فكرته في توحيد الكلمة بين الزَّعامات في عُمان، وبين السُّلطان تيمور بن فيصل والإمام محمَّد الخليلي بخاصَّة، وهي الخطوة الأولى في خدمة المصالح العُمانيَّة العامَّة،

---

١) "انقلاب عظيم في عمان، وزارة الباروني باشا لدى حكومة الإمام الخليلي أعزَّها الله"، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص٢٧، ٢٨.

٢) العبيدي، سالم بن هاشل بن ضحى: "سليمان باشا الباروني: علاقته بأئمة عمان وسلاطينها وجهوده الفكريَّة والإصلاحيَّة"، سليمان باشا الباروني وحضوره في الثقافة العمانيَّة، مج٢ ص٣٩.

٣) المرجع نفسه.

وبعد أن اقتنع بعض الرِّجال الملتفِّين حول الإمام بضرورة تنظيم الدَّولة بالمقاييس العصريَّة، مع الالتزام بقواعد الشَّرع الإسلامي، لم يتردَّد الشيخ الباروني في إجابة طلب الإمام الخليلي لتحمُّل مسؤوليَّة تنظيم الدَّولة على أسس عصريَّة مع مراعاة قواعد الشَّرع الإسلاميِّ في ذلك.

جمع الإمام أقطاب دولته، من الزُّعماء والعلماء وأهل الرَّأي والمشورة، واستشارهم في إسناد أمر تنظيم الدَّولة إلى الشَّيخ سليمان الباروني وتفويضه في ذلك، بعد مرور سنتين على إقامة الشيخ الباروني في عُمان. وقد وافق الجميع على اقتراح الإمام، بعدها أصدر البيان الآتي: "بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، من إمام المسلمين محمَّد بن عبد الله الخليلي إلى جماعة المسلمين، ليعلم الحاضر الغائب أنيِّ فوَّضت الأمر في تنظيم المملكة تنظيمًا صالحًا للشَّيخ الباروني، فبيده الملكيَّة والعسكريَّة والماليَّة والسِّياسة الدَّاخليَّة والخارجيَّة، فمن يخالفه أو يقف في سبيل أعماله الإصلاحيَّة يعاقب، ولا يلوم إلاَّ نفسه"[١]. تضمَّن البيان العناصر الآتية:

- تفويض الإمام للشَّيخَ البارونيَّ تنظيم الشؤون الملكيَّة والعسكريَّة والماليَّة والسِّياسة الدَّاخليَّة والخارجيَّة للدَّولة، وهذه من أهمِّ المجالات في الدولة المعاصرة.
- التَّنصيص على الإصلاح يحمل أكثر من دلالة ومعنى ورسالة؛ ففيه بيان الدَّور المنوط بالشَّيخ سليمان الموكول إليه تنظيم شؤون الدَّولة ومن دون تحديد أو تقييد حدود ذلك الإصلاح. وفيه كذلك إبلاغ النَّاس أنَّ المَهمَّة التي أنيطت بالشَّيخ هي الإصلاح، فلابدَّ من فهمها ووعيها والسَّير معه في هذا المنحى. وفيه - أيضًا - تحديد الهدف الذي يريد أن يصل إليه الإمام، وهو تطوير البلاد والتَّغيير نحو الأحسن.
- تحذير من يقف في طريق جهود الشَّيخ سليمان الباروني الإصلاحيَّة التَّطويريَّة؛ وهذا التَّحذير يقدِّم السَّند المادِّيَّ والمعنويَّ للشَّيخ سليمان في تحرُّكه ونشاطه وما يعتزم القيام به.

١) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص٢٩، ٣٠. ورد نصُّ هذا التَّعيين تحت عنوان: "مرسوم ملكي" في الكتاب. وجاء في الهامش: لم يشر المرسوم الملكي إلى تاريخه، ويظهر أنَّه في أواخر محرَّم ١٣٤٥هـ.

ماذا نقرأ في هذه التَّوصيَة وفي هذا التَّفويض؟ نقرأ فيهما:

- الثِّقة الكاملة التي وضعها الإمام في الشَّيخ في تنظيم الدَّولة تنظيمًا لائقًا ومفيدًا لها، وهي تكشف عن مظهر من مظاهر العلاقة الصَّادقة الوثيقة بين الرَّجلين.

- أنَّ الإمام يتوقَّع حدوث بعض ما يعيق حركته وعمله وتسيير شؤون الدَّولة، فلم يقف عند إسناد مهمَّة الإصلاح إلى الرجل المناسب بل أقام حوله سياجًا يحميه من أعمال المشاغبين والمعترضين.

وتكمن في هذا الاختيار عبقريَّة الإمام وإخلاصه لوطنه، فهو يطمح أن يراه كبيرًا متطوِّرا خارجًا من دائرة التَّخلُّف والتَّأخُّر. وفي كلِّ الحالات، ومع كلِّ التَّفسيرات التي تعطى لهذا الاختيار، والنَّتائج المتحصَّل عليها، إيجابيَّة كانت أم غير ذلك، فهو يدلُّ على العلاقة المتينة التي تربط الإمام الخليلي بالشَّيخ سليمان الباروني.

وقد أحسن الإمام صنعًا باختيار الشَّيخ الباروني أمينًا على تدبير شؤون الدَّولة؛ فهو الرَّجل القويُّ الذي يقف في وجوه المعارضين للإصلاح والتَّطوير والسَّير قدمًا بالبلاد نحو السُّموِّ والرُّقيِّ والتطوير، بل في بعض تصرُّفاتهم خروج عمَّا يمليه الشَّرع وإيثارًا لمصالحهم الخاصَّة، كما اكتشف ذلك الشَّيخ سليمان الباروني فيما بعد.

وكان الإمام يسمع إلى ما يقوله الشَّيخ سليمان الباروني، ويُقِرُّ ما يدبِّر ويقرِّر، واضعًا فيه الثِّقة الكاملة. فعلى سبيل المثال، حين شرع الشيخ الباروني في إصلاح المنظومة الماليَّة، خاصَّة فيما يتعلَّق بالأوقاف، وجد فسادًا أو اختراقًا وخللا في التَّصرُّف من بعض الأفراد نتيجة تقديمهم المصلحة الشَّخصيَّة على حساب المصلحة العامَّة، فوقفوا في وجه الإجراء الجديد والإصلاح الذي يقوم به الشيخ الباروني لإرجاع الأمور إلى نصابها. فتم عقد اجتماع عام أثير فيه موضوع هذا الإصلاح، وحضره إلى جانب الإمام، بعض رؤساء القبائل والعلماء، وبعض الأفراد المنكرين لإصلاحات الشيخ الباروني وعدوها بدعة وخروجًا عن سَنَنِ ما كان عليه الآباء والأسلاف. وبعد استماع الشَّيخ الباروني لكلِّ ما دار في الاجتماع، طلب الكلمة، فانطلق بصوت مسموع للجميع؛ منكرًا ما أدلى به المعارضون لإصلاحه، ومفنِّدًا بالحجج ما ذكروه، ومبيِّنًا حقيقة ما يجب فعله، مستدلاً بالقرآن الكريم

والسُّنَّة الشَّريفة وبأعمال الخلفاء الرَّاشدين، "والإمام يصول يمينًا وشمالاً، ناظرًا إلى الذين هرعوا إليه من قبل وأتوه معترضين، وهم في غضب شديد، ينظر الإمام إليهم وهو يبتسم كلَّما سمع حجَّة دامغة من كلام الباروني باشا. ولـمَّا انتهى من الكلام، قال الإمام ما خلاصته: أمَّا المضرَّة فقد شاهدناها ظاهرة، وأمَّا المنفعة فها نحن نسمعها بآذاننا ونلمسها بأيدينا، وديننا المبين لا يسوغ لنا - قطعًا - سلوك طريق المضرَّة وتجنُّب طريق المنفعة، بناء عليه إنَّ هذا الأمر قد قضي باتِّفاق العلماء فلا أقبل بعد اليوم أيَّ اعتراض"[١].

إن فراسة الإمام الخليلي في شخصيَّة الشَّيخ سليمان تنفتح عن أوَّل إنجاز في تسيير شؤون الدَّولة، وتتَّضح في قضيَّة تنظيم شؤون الأوقاف وتصحيح الخلل في توجيهه والتَّصرُّف فيه. فقد بدت شخصيَّة الشَّيخ سليمان قويَّة وحازمة في ردع غير المبالين بأوقاف المسلمين؛ ما أعطى الإمامَ قناعةً وثقة كبيرة في اختياره مدبِّرَ شؤون الدَّولة الحكيمَ سليمان، وبه تزداد علاقته به أكثر وثوقًا ورباطًا للمضيِّ والتَّقدُّم في تنظيم الدَّولة.

شعر الشَّيخ سليمان الباروني بهذه الثِّقة التي وضعها الإمام الخليلي فيه، وأقرَّ بالتَّفويض الذي منحه إيَّاه، فكتب إلى زميله الحاج عمر العنق في الجزائر: "حضرة الإمام باشر في بعض الإصلاحات والتنظيم؛ حسب إشارتي، وفَّقه الله. وقد حصل التَّيقُّظ للإصلاح، لولا القحط العام في المملكة، منذ عشر سنين، أعني من يوم قتل الإمام سالم بن راشد الخروصي، وقد ارتحل من عُمان إلى زنجبار للخدمة والتِّجارة أكثر من اثني عشر ألف رجل في مدَّة الخمس سنين"[٢].

وقد ازدادت ثقة الإمام بوزيره المخوَّل إليه تنظيم شؤون الدَّولة؛ لِمَا أقدم عليه الباروني في مجال الإصلاح المالي، والذي تلقاه المؤيدون بكلِّ فرح وسرور وارتياح وأمل في التَّصحيح والإصلاح الشَّاملين. فكان من بين مظاهر تقدير الإمام لشخصيَّة الشَّيخ سليمان الباروني اصطحابه معه لتفقُّد أحوال الرعيَّة؛ ليزيده اطِّلاعًا ودراية بالواقع المعيش.

---

١) سليمان باشا الباروني وحضوره في الثَّقافة العمانيَّة، مج٢، ص٤١.

٢) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص٢٩.

اصطحاب الإمام الخليلي الشَّيخ سليمان الباروني في جولاته التّفقُّديَّة:

من مظاهر المكانة التي حظي بها الشَّيخ سليمان الباروني عند الإمام محمَّد الخليلي اصطحابه له في بعض جولاته التَّفقُّديَّة ليطَّلع على ما يدور في السَّاحة، فيكون له ذلك عونًا في تسيير شؤون الدَّولة عن دراية. يقول الشَّيخ سليمان في أحد مراسلاته: "رغم ضعف جسمي من المرض لم يعذرني الإمام- أعزَّه الله- فأمرني بالتَّشرُّف بصحبته إلى الجهة الغربيَّة من عُمان لتفقُّد أحوالها فامتثلت"[١]. كما كانت للشيخ الباروني زيارات أخرى من دون تنقُّل الإمام معه. وقد أفادت هذه الرِّحلات الشيخ الباروني، سواء قبل مباشرة عمله الإصلاحي أم في أثناء نشاطه، مدَّةَ إقامته في عُمان. يقول سليمان بن سعيد الشِّيباني: "لم تكن جولة الباروني في مختلف قرى وبلدان عُمان لمجرَّد السِّياحة فحسب، إنَّما كانت - أيضا - رحلة استطلاعيَّة، ليتعرَّف فيها على أحوال عُمان السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة؛ تمهيدا لتنفيذ مشاريعه الإصلاحيَّة"[٢].

إصلاحات الشَّيخ سليمان الباروني:

إنَّ إقامة سليمان الباروني بعُمان، واحتكاكه الكبير الواعي بالحياة العامَّة فيها جلبا له تقدير السُّلطان تيمور بن فيصل والإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي وتقريبهما له، وطلبهما مساهمته في تنظيم شؤون عُمان؛ لما له من حنكة وحكمة وتجربة وكفاية لإدارة الأعمال والتَّنظيم والإصلاح والتَّطوير؛ "فوضع برنامجًا حكوميًّا رائعًا للنَّهضة بالبلاد في جميع القطاعات الحيويَّة"[٣]. وكان الشيخ الباروني يرى أن إصلاح الجيش والماليَّة والتَّعليم والصِّحَّة "هي القاعدة المتينة لبناء دولة عصريَّة قويَّة"[٤]. وكانت نظرته في تنظيم الدولة "نظرة صائبة في كثير من جوانبها، وتدلُّ على شخصيَّة قياديَّة فذَّة، تستطيع تقييم الأمور وتسييرها في

---

١) رسالة من الباروني إلى هاشل المسكري، (مخطوطة). ينظر: سليمان باشا الباروني وحضوره في الثقافة العمانيَّة، مج٢، ص١٩، ٢٠.

٢) سليمان بن سعيد الشِّيباني النَّفوسي: سليمان باشا الباروني أمَّة في رجل، ط١، نشر جمعيَّة الفتح، ليبيا، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص٧٢.

٣) زرمان، محمَّد، وحقاين جمعة: "سليمان الباروني، نشاطه العلمي والسِّياسي"، سليمان باشا الباروني وحضوره في الثقافة العمانيَّة، مج١، ص٤٢، ٤٣.

٤) المرجع نفسه.

وجهها الصَّحيح"[١].

وتحت عنوان: "ماذا كان بعد وزارة الباروني باشا في حكومة الإمام"[٢] كتب أبو اليقظان: "كان لسعادة الباروني باشا، بعد إسناد الإمام الخليلي وتفويض أمر مملكته إليه، برنامج واسع وخطَّة حكيمة في إصلاح شؤونها وتنظيم مصالحها، لو ساعده القدر وسالمه المرض وجانبته حمَّى الملاريا، كان ينوي أن يصلح وينظم تنظيما عصريا سائر الدَّواوين في جميع الميادين؛ بما يجعل دولة الإمامة بعُمان تضارع الأمم النَّاهضة والدُّول الحديثة في مقوِّمات الحياة"[٣]. فوضع الشيخ الباروني الخطط للإصلاح في أربعة مجالات رئيسية وهي: المالية، والمعارف، والجيش، والصِّحَّة[٤].

الإصلاح السِّياسي:

ارتأى الشَّيخ سليمان الباروني أن يكون الإصلاح في الدَّولة وفق خطَّة محكمة تعتمد الإصلاح الشَّامل في مختلف المجالات، مبتدئة بما يجب البدء به، وهو الإصلاح السِّياسيُّ والإداريُّ[٥]. فهذان المجالان يشكِّلان واجهة الحكم وقمَّة الهرم في الإدارة والتَّنظيم. وبما أنَّ ما اصطدم به هو الاختلاف الذي دبَّ في هرم السُّلطة في عُمان، وأنَّ أيَّ إنجاز في هذا الجانب لن يتحقَّق إلاَّ بتوحيد الصَّفِّ ورأب الصَّدع، ولمِّ الشَّمل، فقد كانت بداية عمله في الإصلاح السِّياسي هو نزع مظاهر الخلافات بين السلطان تيمور بن فيصل والإمام محمَّد الخليلي. وهذه المَهمَّة تتطلَّب حنكة ودراية، من رجل ماهر حاذق لبيب، هو سليمان الباروني[٦]. قال الشَّيخ إبراهيم أبو اليقظان: "ومن أعماله الكبيرة سعيه المخلص الحثيث المثمر لجمع الكلمة وتوحيد الوجهة بين عظمة سلطان مسقط السَّيد تيمور وبين

١) المرجع نفسه.

٢) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص٤٤ - ٥٣.

٣) المرجع نفسه، ص٢٤.

٤) المرجع نفسه، ص٢٤.

٥) عن جهود الشيخ سليمان في الإصلاح السِّياسي ينظر: سليمان باشا الباروني وحضوره في الثَّقافة العمانيَّة، مج٢، ص٢٤٠ - ٢٤٥.

٦) عن مشاعر الشَّيخ سليمان فيما كان يحدث في عمان من الخلافات تهدِّد وحدة البلاد واستقرارها ومستقبلها ينظر: مجلَّة المنهاج، جمادى الأولى، ١٣٤٤هـ، م١، ج٥، ص٣٥٠ وما بعدها.

عظمة الإمام الخليلي، فكانت الكلمة واحدة والخطَّة واحدة والهدف واحدًا، ولو اختلفت الوسائل وتباين الموقف"[١].

كان الشَّيخ سليمان يدرك أنَّ المهمَّة لن تكون سهلة، في ظلِّ التَّوتُّر الذي كان سائدًا بين الزَّعيمين، وأمام الأحداث الخطيرة التي تحدق بعُمان داخليًّا وخارجيًّا، من رفقاء وفرقاء الدَّاخل والأعداء الألدَّاء من الخارج، لكنَّه وعى جيِّدًا واقتنع أنَّه هو أحد الحلول الممكنة للوقوف أمام كلِّ هذه الأخطار، وتيقَّن أنَّه يجب أن لا يقف مكتوف اليدين أو متفرِّجًا على ما يحدث في عُمان، ولاسيما وأنَّ السُّلطان والإمام قد وضعا فيه الثِّقة، وعقدا عليه الأمل في الإسهام في حسن تنظيم شؤون العُمانيِّين؛ ليخرجوا من الوضع القائم حينئذ. ورغم مبادرة المرض، الذي لازمه في حياته إلى أن توفَّاه الله، قبل أن يشرع في وضع خطَّة العمل في سبيل توحيد الصَّفِّ أوَّلا، فقد بادر في التَّفكير في هذه الخطَّة التي التزم فيها بالعمل مع الرَّجلين معًا السُّلطان تيمور والإمام الخليلي؛ تنفيذًا وتطبيقًا عمليًّا لما آمن به وعاهد نفسه عليه، وهو توحيد عُمان بدءًا بزعمائها. قال الشَّيخ سليمان الباروني: "كُلِّفت مرارًا من بعض أهل الحلِّ والعقد بقبول منصب عال مع الإمام، فاعتذرت خوفًا من أن ينسب إليَّ التَّحيُّز، وأنا يهمُّني أن أبقى للطَّرفين (السُّلطان والإمام) حتَّى أتمكَّن من صلح بينهما، يسعد البلاد إن شاء الله"[٢]. فقام الشيخ الباروني "بأعمال تمهيديَّة لإزالة الجفاء بين السُّلطان والإمام، وتقريب المسافات بين الفريقين، بما ظهر أثره المحمود من توحيد قواهما لمواجهة الأخطار وجمع كلمتهما ضدَّ الأجنبيِّ، وتوجيه أنظارهما لحماية عُمان من كلِّ اعتداء على البلاد من أيِّ كان"[٣].

وقد أدرك الشَّيخ سليمان الباروني مغبَّة الخلاف الذي نشب بين الزَّعيمين اللَّذين يحكمان عُمان، فعمل بكلِّ ما أوتي من قوَّة، وحذق من حيلة في وضع خطَّة لإزالة هذا الخلاف، والتَّعامل بحنكة وحكمة مع الاختلاف الذي يطبع علاقتهما. ولكون الصِّلة بينه وبين الإمام لم تكن صلةً عاديَّة، بل هي رابطة تنتظمها المسؤوليَّة التي أناطها الإمام في عنقه، وتحكمها الثِّقة التي وضعها في شخصه، فإنَّ الوزير

١) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص٢٤.
٢) المرجع نفسه، ص١٤.
٣) المرجع نفسه، ج١، ص٢٤٩، ٢٥٠.

المفوَّض أخذ يجاهد لدرء كلِّ خطر يهدِّد عُمان.

غيرة الباروني على عُمان، الذي يرى نفسه أحد المسؤولين على أمنها ومستقبلها، والدِّراية العميقة بأحوال عُمان وما يدور في ساحاتها وعقول أهلها ونفوسهم، مكَّنته من اقتراح خطَّة مبدئيَّة، تعتمد على قوام الوحدة بين أهل عُمان، وعلى توزيع الأدوار والحذر من الاختلافات والخلافات التي تؤدِّي إلى خسران كلِّ شيء، الأرض والعرض.

يقول الباروني: "فالذي أكرِّره لكم من قبيل النَّصيحة في الدِّين، اتِّفاقكم مع السُّلطان، على أن يبقى بينكم ما هو بيدكم الآن، ويتولَّى هو إدارة البلاد والدِّفاع عنها إذا قصدها أحد. عليه المال والسِّلاح وعليكم الرِّجال، وتكون الوزارة منتخبة من طرف الإمام وجماعته، لتكون الدَّولة بينكم فتستريحون أنتم والسُّلطان وتسلم البلاد، وإلَّا فرحمة الله على بلدكم ومذهبكم. جماعة بني بوعلي - الآن - في الهند، يطلبون سلطنة مركزها صور، ومنتهاها نزوى أو الرَّمل، والتَّضييق دار لينفصلوا أيضًا، فتأمَّلوا في موقفكم هذا؛ إذا لم تتَّفقوا مع السُّلطان فلا تبقى سلطنة ولا إمامة، والوزر عليكم بدون شكٍّ"[1]. ونقرأ في هذه الخطَّة المقترحة ما يأتي:

- العلاقة الكبيرة التي كانت بين الإمام الخليلي والشَّيخ الباروني، المبنيَّة على الثِّقة وإسناد الأمور إلى أصحابها.
- شعور الوزير المفوَّض بواجب النُّصح للعُمانيِّين والصِّدق في تدبير شؤونهم، وسلوك مسلك الصَّراحة معهم، من دون مجاملتهم والخجل من الكشف عن حالهم، ومن دون التَّأخر عن بيان المآل الذي ينتظرهم في حالي التَّحرُّك والخذلان.
- هدف الشَّيخ الباروني من هذه الخطَّة المقترحة توحيد عُمان، وجعل التَّعاون والتَّعاضد يسودان الإمامة والسَّلطنة، بل القصد كان وضعهما في نظام واحد، يشبه النِّظام الفدرالي؛ بكونهم أبناء مذهب واحد ووطن واحد.

١) المرجع نفسه.

وقد عمل الشَّيخ سليمان الباروني على توطيد الروابط بين السُّلطان تيمور والإمام الخليلي. كتب في مجلَّة "المنهاج"[1] بعد المعاهدة الثُّلاثيَّة المدبَّرة لغزو عُمان، التي استاء منها المسلمون، قائلا: "أمَّا مملكة عُمان فلا خوف عليها بإذن الله من المعاهدة إن صحَّت، ولو قصد أحد عُمان قبل هذا لحصل بعض تأثير، إذ كانت قبائلها تتقاتل والرُّؤساء طامحون إلى العصيان، وكلٌّ من بيده حصن يرى أنَّه سلطان القطر. أمَّا الآن فقد توحَّدت كلمة البلاد وانقطعت الفتن، وأدرك الجميع مضرَّة الانقسام، وأحسُّوا بما يحيط بهم من الخطر برًّا وبحرًا، وأعلن القابضون على الحصون أنَّهم مستعدُّون لتسليمها لمن يتصدَّى للدِّفاع. وسيسمع العالم، إذ ذاك- بدون شكٍّ - أنَّ عظمة السُّلطان تيمور قام بما يوجبه عليه حقُّ الوطن والملك، وصوَّب حضرة الإمام واتَّحد الدِّفاع"[2].

فقد أشارت الرِّسالة إلى الأخطار المحدقة بعُمان والمناطق المجاورة، وذكرت بالدَّليل وبالتَّحليل، وبالاستناد إلى التَّاريخ ما تعرَّضت له المنطقة جرَّاء أطماع المستعمرين في خيراتها، وما يمكن أن يحدث لها ممَّن هم على شاكلة أهل عُمان، إن لم يتداركوا الأمر بتوحيد الصَّفِّ ونبذ الخلافات وتغليب المصلحة العامَّة على المصالح الشَّخصيَّة، فعُمان هي نقطة الاهتمام الأوَّل للوزير المفوَّض سليمان الباروني، والذي تربطه علاقة خدمة مصالح عُمان مع السُّلطان والإمام.

ثمَّ أضاف الشَّيخ الباروني في تلك الرسالة: "كتبت هذا ليقرأه على صفحات جريدتكم الإسلاميَّة المحترمة رجال الإسلام الذين يهمُّهم أمر إخوانهم المسلمين أينما كانوا؛ ليطمئنُّوا ويعلموا أن لا خوف على عُمان العربيَّة المستقلَّة بإذن الله"[3].

ألا نقرأ في هذه الرِّسالة، وفي النَّتائج المهمَّة على مستقبل عُمان بُعدَ نظر الشَّيخ سليمان في العلاقات العُمانيَّة الدَّاخليَّة؟ ألا ندرك أهمِّيَّة المقترح الذي قدَّمه للوقوف أمام كلِّ المستجدَّات التي تهدِّد استقرار عُمان ووجوده؟ ألا نعي عمق العلاقات التي تربط الشَّيخ سليمان بزعماء عُمان؛ ليفوِّضوه في تدبير شؤون وطنهم، وليستمعوا

---

١) ينظر: "جزيرة العرب لا خوف على عمان من المعاهدة"، مجلَّة المنهاج، ربيع الأول ١٣٤٤هـ، م١، ج٢، ص٢١٦. الرِّسالة مؤرَّخة في ١٧ من صفر ١٣٤٤هـ أرسلها الشَّيخ سليمان من ولاية القابل بعمان.

٢) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص٥ - ٧.

٣) المرجع نفسه، ج٢، ص: ٧. ينظر: نصُّ الرِّسالة كاملا مع تعليق الشَّيخ إبراهيم أبي اليقظان، المرجع نفسه، ص: ٤ - ٩.

إلى ما يقدِّم من ملاحظات واقتراحات، بل ليقبلوا منه لومه لهم وتقريعهم، حين يتخلَّفون عن إدراك مصلحتهم ومصلحة بلدهم، ثمَّ لا يستنكفون منه وممَّا يدلي به؟ أترك الإجابات للقارئ الذي يتأمَّل هذه السِّيرة، ويقرأ هذه العلاقة قراءة فاحصة نافذة ناقدة ومتأنِّية، وبتأمُّل ورؤية استشرافيَّة، وبحسٍّ سياسيٍّ موضوعيٍّ.

الإصلاح الاقتصاديُّ:

أشرنا سابقا إلى أنَّ الشَّيخ سليمان الباروني عجَّل بالإصلاح الماليِّ في دولة الإمام الخليلي، بعد تولِّيه مسؤوليَّة تدبير شؤونها مباشرة؛ فرتَّب دفاتر الماليَّة، ونظَّم إيراداتها ومصارفها وغيرها من الجوانب التي تتطلَّب الإصلاح والتَّنظيم والتَّدقيق في تسييرها. وكان من بينها تنظيم أموال الأوقاف التي وجدها تدار بطريقة غير سليمة، وكان بعض المشرفين عليها يتصرَّفون فيها بما يخدم مصالحهم الذاتيَّة.

فقد كانت أغلب ماليَّة دولة الإمام الخليلي زكاة وأوقافًا: أوقاف المساجد والمتعلِّمين، والمدرِّسين، والطُّرق، والآبار، والأفلاج، والفقراء، وابن السبيل، والأكفان، وذوي العاهات، وغيرها. وقد وجد الشيخ الباروني أن ما يصل خزينة الدَّولة من وارداتها شيئًا قليلاً، والباقي يستولي عليه بعض المشرفين عليها بطرق غير مشروعة- أو بالأحرى يودع في الجيوب. "وصندوق الإمام كان عبارة عن صناديق الولاة والقضاة والجباة والوكلاء. فقد كانوا مطلقي التَّصرُّف، لا حساب ولا عقاب عليهم. أمَّا الآن فأوَّل ما افتتح به الباروني باشا أعماله حفظ هذه الأموال في صندوق واحد، في يد رجل أمين غنيٍّ، انتخبه لذلك بمعرفة الإمام، ولا يصرف شيء منه إلاَّ بأمر منه ومصدَّق من الإمام"[١].

وكان من أعمال الباروني في هذا المجال "تقييد الصَّادر والوارد في بيوت المال في سمائل ونزوى وبهلا، ورصد أوقافها ومدخول سوقها، ثمَّ توحيدها كلِّها في صندوق واحد، يكون في يد أمينة، تحت إشراف الإمام، وتنظيمُ جباية الزَّكاة، ووضعُ قوانين صارمة لمتابعة الجُباة، وإنشاءُ الدَّواوين، وتسجيلُ المعاملات في دفاتر رسميَّة"[٢].

١) المرجع نفسه، ص٣٠.

٢) القصائد العمانيَّة في الرِّحلة البارونيَّة، ص١٦.

غير أنَّه ما كاد الشيخ الباروني يشرع في تنظيم أموال الدَّولة، كما بيَّنَّاه آنفًا "حتَّى قامت قيامة بعض الانتفاعيِّين الذين يمسُّ مصالحهم هذا النِّظام، وزلزلوا من ذلك زلزالا شديدًا، حتَّى أخذوا يختلقون ضدَّ الباروني الاختلافات بما اضطرَّه أن يعقد مع الإمام مجلسه الحاسم، وهو غاصٌّ بالملأ من رجال دولته، من بينهم أولئك المعارضون. فكانت النَّتيجة بعد محاسبة هؤلاء أن زاد عظمة الإمام في تفويض الباشا في أمور مملكته، وهدَّد المعارضين له بصارم العقاب، حتَّى اضطرَّ هؤلاء للاعتذار لدى عظمة الإمام وسعادة الباروني باشا، والحقُّ أحقُّ أن يتَّبع"[1].

وقد ذكر الباروني هذه الخطَّة في رسالة، أرسلها إلى صديقه الحاج عمر العنق قال فيها: "جناب الأخ الفاضل الحاج عمر العنق، دام موفَّقًا. آمين. السَّلام عليك ورحمة الله وبركاته. إنِّي في خير ولله الفضل. تلقَّيت كتابك المؤرَّخ في ٢٤ صفر، بكلِّ سرور؛ إذ دلَّ على صحَّتك، وتحسُّن أحوالك، وهناء البلاد وخصبها وراحة الإخوان، والحمد لله على ذلك كثيرًا. إنِّي في اجتهاد في تنظيم المملكة مبتدئًا بماليَّتها التي كانت ضائعة، وبعد حفظها أباشر العمل في غيرها"[2].

وفي الميدان الفلاحي، لم يغفل الباروني العناية بعصب الفلاحة في عُمان ومورد غذائها وتنميتها (الأفلاج)، فقد نبَّه الإمامَ إلى ضرورة الاهتمام بها وصيانتها؛ لأنَّها مصدر الرَّيّ والشُّرب لسكَّان عُمان. كما أشار عليه أن يعمل على استخراج ما في جوف الأرض من الثَّروات المعدنيَّة، فقد قال له مخاطبًا[3]:

جدِّدْ مدارسَها، وصُنْ أنهارَها ... إنَّ الحياة العلم، ثمَّ الماء
عمِّر مساجدها، وحافظ وقفها ... فيها يُصانُ العلم والعلماء
واستخرجَنْ كنوزَها مِنْ سَهلِها ... وجبالها، إنَّ الكنوزَ غناء

وفي سبيل الاستفادة من نعمة الماء الذي تتوفَّر عليها عُمان، ومن أجل استغلالها

---

١) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص٤٤.

٢) المرجع نفسه، ص٤٥. الرِّسالة المرسلة إلى الشَّيخ الحاج عمر العنق مؤرَّخة هكذا: سمائل، ٩ جمادى الأولى ١٣٤٥هـ. وردت في المصدر هكذا ١٩٤٥ م، هو خطأ مطبعي أكيد. ينظر تفصيلات عن موقف الباروني وردود الفعل على إصلاحه المالي، المصدر نفسه، تحت عنوان: "الهزَّة العنيفة بالانقلاب الجديد في عمان"، ص٣١-٤٣.

٣) سليمان باشا الباروني وحضوره في الثَّقافة العمانيَّة، مج٢، ص٥٥ - ٥٦.

الاستغلال الجيِّد، أشار الباروني "بإقامة السُّدود في عُمان؛ للمحافظة على الثَّروة المائيَّة وزيادة المنسوب الجوفي للمياه. فممَّا يروى في ذلك أنَّ الشَّيخ سليمان الباروني كان زائرًا للحمراء مع جملة من المشايخ العبريِّين، فمرَّ من طريق وادي "المدعام" فغضب وقال: هذا كفر بنعمة الله، إنَّ مثل هذه الأماكن تحتاج إلى سدود لحفظ المياه والانتفاع بها"[١].

ومن بين ما قام به الشَّيخ سليمان الباروني، من إصلاحات اقتصاديَّة كثيرة؛ تطلُّعًا منه للرُّقيِّ بعُمان إلى ما يكفل لها تبوُّؤ مراتب الدُّول المتطوِّرة، فرض أسلوب التَّقشُّف في بعض الأحيان وفي بعض القطاعات، ليوفِّر منها ما يدير به شؤون مجالات أخرى. وفي هذا الإجراء تظهر عبقريَّته في تدبير أمور البلاد، وحسن تسييرها، بما يراه صالحًا لها. فقام بتخفيض بعض الرواتب؛ لعلَّه فعل هذا ليخفِّف عن ماليَّة الدَّولة كثيرًا من الأعباء التي لا تستطيع تحمُّلها، وليصرف تلك الأموال في مشاريع تنمويَّة أخرى، وخصوصًا أنَّ إصلاحه شمل كثيرًا من المجالات[٢].

الإصلاح الفكريُّ:

ترتيب المنظومة الفكريَّة، وتأصيل الفكر، يسبقان أي خطوة في البناء أو الإصلاح؛ لأنَّ الحركة وتنفيذ المشروعات يحتاجان إلى مرجعيَّة فكريَّة يستندان إليهما، هي بدورها تصدر عن فكر محدَّد ومؤصَّل، وهذا الفكر يحتاج أن يتشبَّع به من سيصدرون عنه، ويخطِّطون مشروعاتهم، وهذا التَّشبُّع والتَّمثُّل يأتيان من التَّعلُّم وثمرات من ثماره اليانعة. وهذا ما حرص سليمان الباروني على القيام به، في خطوة مهمَّة في إصلاحه، ثمَّ بناء الدَّولة والكيان. فاتَّجه نحو إصلاح التَّعليم وتوفير وسائله وتهيئة الشُّروط التي تساعد على السَّير به نحو التَّطوُّر والازدهار؛ للنُّهوض بالدَّولة التي فوَّضه الإمام الخليلي في القيام بشؤونها. وحين تولَّى الشَّيخ سليمان الباروني مهمَّة إصلاح التَّعليم تحرَّك وسط أجواء غير سليمة:

- كان يسود الجهل والتخلُّف، إذ لم تكن تتوفَّر المدارس الحكوميَّة، فضلا عن الجامعات والمراكز المتخصِّصة في التَّعليم.

---

١) المرجع نفسه، ص٥٦.

٢) المرجع نفسه.

- كان نمط التَّعليم الموجود في بعض المحاضن تقليديًّا، ومقتصرًا على تعليم القراءة والكتابة وما يتعلَّق بأمور الدِّين، وبطرق غير فاعلة.

لم تكن النُّفوس متفتِّحة للتَّطوير والتَّجديد في الأساليب والوسائل، ولم يكن يحظى العلم بما يجب أن يناله من تقدير أهمِّيَّته ودوره في الحياة؛ لذا لم يلقَ الباروني التَّجاوب المطلوب مع إصلاحاته، يقول الشَّيخ أبو اليقظان: "أضف إلى هذا أنَّ أهل عُمان- غالبًا- ما زالوا على الطِّراز القديم، وما زالوا لم يهضموا الأساليب الحديثة في الحياة، ولا سيَّما فيما يخصُّ التَّعليم الذي هو أشدُّ مساسًا بالدِّين، وإلاَّ لنسجوا على منواله وأتمُّوا برامجه ولو أقعده عنها المرض"[1].

هذه الأوضاع أثَّرت كثيرًا على الحياة الفكريَّة في عُمان، وإقبالها على الحركة العلميَّة. وقد خبر الشَّيخ الباروني هذه الحالة، وأدرك خطر البقاء فيها، فشرع يخطط للخروج بالشَّعب العُمانيِّ من هذا الوضع. ثمَّ شرع في بناء مدرسة كبيرة في مدينة سمائل، وكان في مشروعه أن تكون أوَّل مدرسة ثانويَّة وأكبرها في عُمان، وبمواصفات عصريَّة.

فأسَّس الشيخ الباروني "المدرسة البارونيَّة" بسمائل، واجتهد أن تستجيب للتَّحدِّيات التي تتململ في الميدان، وتنسجم مع خططه لإصلاح البلاد، وتنظيم شؤونها تنظيمًا محكمًا. فوضع خطَّة تتضمَّن جلب معلِّمين من مختلف الدُّول التي يمكن له أن يسافر إليها أو يتَّصل بها، وتحديد برامج ومناهج مدرسيَّة متطوِّرة، تضع في الحسبان موادَّ تعين على إعداد نخب تتكوَّن في مختلف المعارف التي تساعد على مسايرة العصر والتَّخطيط الجيِّد للمستقبل. وتضمَّنت الخطَّة - كذلك - السَّعي للحصول على الدَّعم المادِّيِّ لبناء الهياكل، وتوفير أجور العاملين في المدرسة، وتطوير البرامج، وغيرها من الجوانب التي تحتاجها المنظومة التَّربويَّة المعاصرة[2]. وقد قال أبو اليقظان عن هذا الجهد: "أخذ في إنشاء مدرسة كبرى في سمائل، وكان ينوي أن تكون أوَّل وأكبر مدرسة ثانويَّة في سائر بلاد عُمان، وقد

---

١) سليمان البار وني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص٤٦.

٢) ينظر: تفصيلات الجهود التي قام بها الشَّيخ سليمان لبناء مدرسة سمائل: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص: ٤٦ وما بعدها. وما ورد في بعض رسائله إلى الشَّيخ سليمان بن النَّاصر اللَّمكي في زنجبار. ينظر: سليمان باشا الباروني وحضوره في الثَّقافة العمانيَّة، مج ٢، ص٤٩ -٥١.

صرف عنايته وجهوده لإبرازها إلى الوجود بنظام عصري على الطِّراز الحديث. وكان في عزمه أن يسافر إلى عواصم الإسلام ليجلب منها الأساتذة والمعلِّمين الأكفاء، إذا ساعده القدر، وتسامحت معه الدُّول الكبرى لدخول تلك البلاد التي تحت نفوذها. ولكنَّ الأمراض المزمنة أنهكت قواه وأقعدت به عن إنجاز هذه الغاية السَّامية، ولم يحقِّق إلاَّ جزءًا يسيرًا منها؛ وذلك بإتمام الطَّابق الأوَّل فقط، من تصميمه الشَّامل لطابقين. ومع هذا فقد بقي الطَّابق الأوَّل مغلقًا، إذ لم يتيسَّر له أن يسافر لجلب المعلِّمين إليها من خارج عُمان"[١].

فهذه إحدى صور المعاناة التي كانت تطبع حياة الباروني في سبيل النُّهوض بعُمان علمًا وفكرًا. وهي، أيضًا، إحدى المحطَّات أو المواقف التي تثبت إصراره على مواصلة العمل مهما تكن الظُّروف والأحوال. كما تؤكد هذه الجهود العلاقة التي تربط سليمان الباروني بعُمان في ظلِّ تفويض الإمام الخليلي له لإدارة شؤون دولته[٢]. فالأعمال التي اجتهد سليمان الباروني للقيام بها في عُمان ولو كانت بسيطة ولكنَّها مهمَّة؛ من حيث إنَّها أفادت في إيقاظ الفكر، وترقية العقل، وجاءت نتائجها في قادم الأيَّام.

ومن الجهود التي قام بها الشيخ الباروني في المجال الفكري والعلمي، ما كان يوفِّره للعُمانيِّين من بعض الجرائد والصُّحف التي تصدر في بعض الدُّول العربيَّة والإسلاميَّة؛ ليطَّلعوا من خلالها على نمط جديد من المنشورات. وكان يحث العُمانيِّين على الاشتراك في هذه الدَّوريَّات لتكون لهم نوافذ يطلُّون منها على المستجدَّات في العالم وليتثقَّفوا بها؛ رغبة منه في تمكين الفرد العُمانيِّ من الإفادة من الإعلام المكتوب. وفي هذا يقول عيسى بن صالح الطائي: "وفي رسالة منه (أي الباروني) إلى أبي إسحاق اطفيَّش (مؤرَّخة في ربيع الآخر ١٣٤٤هـ) كتب يخبره بحرص الإمام الخليلي على متابعة صحيفته "المنهاج". كما وقفتُ على رسالة منه إلى الإمام الخليلي (مؤرَّخة في نزوى: ١٦ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ) أرفق بها جملة جرائد حديثة؛ ليطَّلع الإمام فيها على ما تفعله فرنسا في دمشق من خراب ودمار،

١) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص٤٥، ٤٦.

٢) عن بعض التَّفاصيل في نشاط سليمان الباروني في بناء المدرسة وما رافقها من صعوبات وعراقيل، وما أظهره من تحدِّيات: ينظر: الرَّسائل المتبادلة بينه والشَّيخ أبي اليقظان والحاج عمر العنق. المرجع نفسه، ص٤٥ - ٥٢. وكتاب سليمان باشا الباروني وحضوره في الثقافة العمانية، مج ٢، ص٤٩ - ٥١.

ونبَّهه فيها إلى أثر الصِّحافة قائلاً: (وقد تَنَبَّهَت الجرائد حتَّى في أمريكا إلى الكلام على عُمان، بعد ما كانوا يعدُّونها في الأموات، وأنّها إنكليزيَّة خالصة، فإنَّ للحركة والسُّمعة تأثيرًا كبيرًا على النُّفوس)"[1].

كما كان الشيخ الباروني يقوم بنشر كتابات ويلقي محاضرات تعرِّف بعُمان المجهولة عند كثير من المثقَّفين، وقد أسهمت هذه المحاولات- ولو بقسط يسير- في التَّعريف بهذا البلد الكبير في فكره وتاريخه ومآثره غير المعروفة عند كثير من النَّاس[2].

ومن مظاهر اهتمامه بالجانب الفكري والثَّقافي، رغبته في إنشاء مطبعة تسهم في نشر الفكر وبثِّ الوعي. فكان الشيخ الباروني يعيب على دولة الإمام الخليلي عدم وجود مطبعة تنشر من خلالها ما تريد من المنشورات التي تزيد في ثقافة الفرد العُماني. فكتب متحسِّرًا ولائمًا: "ومن العيب أن يكون مذهب ومملكة لا مطبعة لهما. وكلَّما دعت الحاجة إلى طبع شيء، ولو كانت رسالة صغيرة، ترسل إلى الهند أو العراق أو مصر، وقد دخلت المطبعة حضرموت البدويَّة، والكويت الصَّغيرة، وعمَّا قريب تدخل البحرين، وأين عُمان؟"[3].

الإصلاح العسكري:

كان للجانب العسكري وإصلاح جهازه، معنى ومبنى، اهتمام كبير في برنامج الباروني. فقد لاحظ الشيخ الباروني أنَّ دولة الإمام بحاجة إلى التقدير السليم لدور الجانب العسكري للحفاظ على هيبة الدَّولة، وعلى ما تملك من وسائل وإمكانات ومعدَّات وخبرات، وردِّ كلِّ عدوان ينال منها. فكانت بداية العمل الإصلاحي عند الشَّيخ سليمان الباروني هي التَّنظيم والتَّرتيب، وهي قاعدة ثابتة وأساسيَّة في نشاطه وعمله، "صدع الباروني باشا بالأمر، فباشر أعماله؛ مبتدئا بقلعة سمائل،

---

١) القصائد العمانيَّة في الرِّحلة البارونيَّة، ص: ١٣.

٢) ينظر بعض الإشارات إلى هذا الجانب: سليمان باشا الباروني وحضوره في الثَّقافة العمانيَّة، مج ٢، ص: ٥١ - ٥٤. ومجلة المنهاج، وكتاب سليمان الباروني باشا في أطوار حياته...

٣) من رسالة مخطوطة من الباروني إلى الشَّيخ محمَّد بن سالم الرّواحي، ينظر: سليمان باشا الباروني وحضوره في الثَّقافة العمانيَّة، مج ٢، ص: ٥٣، ٥٤.

فنظَّم دفاتر؛ حصر فيها الذخائر الحربية، ونظم دفاتر العسكريَّة"[١].

وأشار الشيخ الباروني على الإمام بصيانة القلاع والحصون، والعمل على معالجة الأسلحة القديمة، وجلب أسلحة حديثة، وإنشاء جيش نظامي للبلاد، "واهتمَّ بحصر الذَّخائر وتجديد السِّلاح، ورسم خطَّة للجيش، تتضمَّن ضرورة التَّدريب المستمرِّ"[٢]، "وجلب الضُّبَّاط من الخارج"[٣]. وقال في هذا الأمر مخاطبًا الإمام الخليلي[٤]:

خَلِّ القضا لرجاله، واعكف على ... تنظيم جندٍ، فالنِّظام دواءُ
إنِّي أَرَى حول الإمام عرمرمًا ... شاكي السِّلاحِ، أنوفه شمَّاءُ
يرنو إلى طلب العلاَ متوقِّدًا ... أرواحُه للمكرمات فداءُ
لكن بها من عهد كسرى عُدَّة ... ما في مدافعها الطِّوال شفاءُ
فاستبدلن عتيقها بجديدها ... إنَّ الجديد جهنَّم حمراءُ

وللمتلقِّي أن يتأمَّل في مضمون هذه الأبيات، ويستنتج ما يستنتج من أحوال الدَّولة العسكريَّة، ثمَّ يقرأ الدّلالات التي تحملها في وصف حال الرِّجال الذين يحيطون بالإمام، ويقرأ مسؤوليَّة الدَّولة في توفير الوسائل الكفيلة بتسيير شؤونها وتأمين أمورها. وفيها يقرأ كذلك دور الباروني في التأسيس لنظام جديد لحماية الدَّولة، كما يقرأ أريحيَّة الإمام، الذي يسمع لكلِّ ما يعين على النُّهوض بالدَّولة والقيام بشؤونها، وغيرها من الدّلالات، التي تكشف عن العلاقة التي تربط الزَّعيمين، وتعاونهما من أجل المصلحة العامَّة للبلاد.

إن اهتمامات الباروني في رؤيته دولة الإمام قويَّة، تدفع به - دائمًا - إلى العمل على الإصلاح، وعدم تفويت الفرص للقيام بذلك، ولو بالتَّنبيه إلى ما يجب فعله، وأحيانًا بانتقاد التَّقصير الذي قد يؤدِّي إلى ضياع المصالح أو الإضرار بالبلاد. فحين زار حصن جبرين وتجوَّل في أركانه، وهو أكبر حصن في عُمان، وأحد مآثر

١) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص: ٣٠.
٢) القصائد العمانيَّة في الرِّحلة البارونيَّة، ص: ١٦.
٣) سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص: ٥٠.
٤) مجلَّة المنهاج، جمادى الأولى، ١٣٤٤هـ، م١، ج٥، ص: ٣٥٤.

الدَّولة اليعربيَّة، والشَّواهد على القوَّة العسكريَّة العُمانيَّة وعبقريَّتها، تأسَّف كثيرًا لما آلَ إليه من خراب وإهمال وإهانة، وتحسَّر لعدم إدراك العُمانيِّين دور هذا الحصن، ولم يقوموا بصيانته ليكون ثكنة عسكريَّة، تحمي المناطق المجاورة له والقريبة منه.

وقد أعرب الشيخ الباروني عن ذلك كله في رسالة إلى الشَّيخ إبراهيم العبري، سجَّل فيها أسفه على هذا الإهمال وهذا التَّطاول على أحد الرُّموز التَّاريخيَّة لحضارة عُمان، تشويهًا وتدنيسًا وتغييرًا لبعض معالمه، مبيِّنًا له أهمِّيَّة هذا الحصن العسكريَّة. وممَّا ذكره في تلك الرسالة: "ولكنَّ المتأخِّرين زمانًا وأفعالاً، لم يروا هذا الرَّأي، فأهملوا هذا القصر العظيم، حتَّى استولى عليه الخراب وغيَّر سكَّانه معالمه، فسوَّدوا جدرانه النَّاصعة البياض، المنقوش فيها الآيات الكريمة والأشعار الحكيمة، وأصبح قبر الإمام ينهار عليه التُّراب والخشب من الغرفة المحاذية له المتخرِّبة، وأصبح قبر قاضيه مربطًا للدَّوابِّ، تروث وتبول فوقه! ولو كان هذا القصر عند دولة أخرى لصرفت عليه الأموال الطَّائلة لمجرَّد محافظته من التَّخريب، ولو لم تجعله مركزًا للحكومة؛ لأنَّه أثر تاريخيٌّ فاخر، يدلُّ على فخر الأوائل وعلوِّ مقامهم، ولولا وجود الخلق لما وجد دليل على وجود الخالق، فإنَّ الأثر يدلُّ على المؤثِّر، والبعرة تدلُّ على البعير، وهذه آثار الإنسان تدلُّ على ما كان له من المقام في الحياة الدُّنيا:

تِـلْـكَ آثَـارُنَـا تَـدُلُّ عَـلَـيْـنَـا فَـانْـظُـرُوا بَـعْـدَنَـا إِلَى الآثَـارِ

ولكنَّنا نحن لم نفكِّر في حكمة الأشياء، فأهملنا فضاعت، وضاعت معها أدلَّتنا على أنَّ لنا أوائل لهم شأن ومقام معتبر بين الأمم، والأمر لله"[1].

الإصلاح الاجتماعيُّ:

لم يألُ الشَّيخ سليمان الباروني جهدًا في الإسهام في ترقية المجتمع اجتماعيًّا، والعمل على نزع ما يفسد العلاقات والودَّ بين أفراد المجتمع وقبائله. فقد اجتهد في مقاومة النَّعرات القبليَّة التي كانت تظهر من حين لآخر في الحياة العامَّة.

١) سليمان باشا الباروني وحضوره في الثَّقافة العُمانيَّة، مج٢، ص: ٥٨.

ولكونه رجلاً محترمًا في المجتمع العُماني، وصاحب كلمة مسموعة وصوت مقبول، وصيت ذائع، فقد كانت نداءاته وتوجيهاته تلقى آذانًا صاغية؛ وهذا ما حفَّزه على الاجتهاد في الإصلاح الاجتماعي بقوَّة.

ففي قصيدته التي ألقاها في حضرة الإمام الخليلي دعوة إلى نبذ التَّفاخر بالقبائل والأنساب، التي تورِّث الأحقاد وتحرِّك النَّعرات وتفسد العلاقات، وهو ما كان منتشرًا في المجتمع؛ سعيًا منه إلى وحدة الصَّفِّ ولَمِّ الشَّمل وجمع الكلمة[١]:

وَامْـحُ التَّداعي بالقبائل إنَّه ... سهم العداء ومحنة سوداء
واجمع قلوبًا بالخلاف تمزَّقت ... حتَّى يضمَّ شتاتهنَّ لواءُ

فهكذا وجَّه الشيخ الباروني نداءه ورجاءه إلى رئيس الدَّولة أن يقوم بهذا الواجب الدِّينيِّ والاجتماعيِّ؛ لأنَّ الوحدة هي أساس الحياة السَّويَّة، والفرقة داء ينخر جسم المجتمع. وبيَّن أسباب الفرقة والعداء، التَّفاخر بالأنساب، والتَّحيُّز القبليِّ المقيت، والتَّعصُّب المنبوذ؛ لذا لمَّا أقيم للشيخ الباروني حفل استقبال في مدينة فنجا حين زارها، قدَّم المنشدون أناشيد بديعة، ووقف صبيٌّ في مرحلة المراهقة، وأنشد نشيدًا رائعا بصوت جميل وبالطَّريقة العُمانيَّة الأصيلة، ومن بين ما ورد في النَّشيد شطر بيت فيه دعاء على الحزب الغافري: "والغافري حكمه يزول"، فاستوقفه الشَّيخ سليمان وسأله: "أليس الغافريُّ بأخيك في الدِّين والوطن، وهو الذي يفدي معك هذا الوطن بماله ونفسه؟ أليس هو بأخيك عنصرًا ولسانًا؟ فقال: الصبيُّ: بلى، فقال له: وَلِمَ تدعو عليه بالسُّوء حينئذ؟ أليس إذا فقد فقدت نصف قوَّتك؟ فقال: نعم. لكنَّه ليس من الحزب الذي أنتسب إليه، وهو الهناوي، فهو غافري. فقال له: إنَّ هذا فكر باطل وخطأ عظيم، والذَّنب عائد إلى من علَّمك إيَّاه، أمَّا أنت فصغير معذور، لكن يجب عليك أنت وأترابك ترك هذا الفكر من هذه السَّاعة، ولا تعد إلى فكر هذا البيت قط؛ لأنَّ العدوَّ الحقيقيَّ هو الذي لكم بالمرصاد ليبتلع بلادكم ويفقدكم استقلالكم، ويستعبدكم كلَّكم وأنتم غافلون"[٢].

لقد قدَّم الشَّيخ سليمان الباروني في هذا الموقف توجيهًا تربويًّا واجتماعيًّا راقيًا،

١) مجلَّة المنهاج، ج٥، م١، ص: ٣٥٤.
٢) القصائد العُمانيَّة في الرِّحلة البارونيَّة، ص: ١١٢ - ١١٣.

عالج فيه قضيَّة اجتماعيَّة سادت في المجتمع العُماني. وفيه كذلك تنبيه إلى خطر ما صدر من الصبيِّ، وفيه تحميل الأولياء مسؤوليَّة ما قام به: من علَّمه هذا، ومن قصَّر في أداء رسالته التَّربويَّة المنوطة به. ففي كلٍّ هذا إصلاح وتغيير للسُّلوك إلى الأحسن. وفيما قدَّمه الشَّيخ سليمان لفتة مهمَّة، وطريقة محاورة الصَّبيِّ كانت رائعة، اعتمدت على لفت النَّظر إلى حقيقة ذلك التَّصرُّف وعاقبته، وتوخَّت الإقناع، والتَّدرُّج في المحاورة، مع بيان الخطأ، وذكر مآلات ما قام به الصَّبيُّ وما ينتج عنه. إنَّ هذا سلوك تربويٌّ هادف إلى التَّوجيه الحسن، وفيه كذلك إصلاح في أساليب التَّكوين والإعداد.

الإصلاح الصِّحِّيُّ:

حزَّ في نفس الباروني كثيرًا أن يجد المجال الصِّحِّيَّ في دولة الإمام الخليلي ضعيفًا جدًّا؛ فالأمراض منتشرة بكثرة، ووسائل العلاج شبه منعدمة، والمستشفيات غير موجودة أصلاً، والأطبَّاء مفقودون. وهذا ما صدم الوزير المدبِّر لسياسة الدَّولة يعد مفارقة عجيبة، لا تتناغم مع الحسِّ الحضاريِّ، ولا تنسجم مع ما يفترض أن تكون عليه عُمان الحضارة والتاريخ، "إذ من العار أن تكون مملكة ذات تاريخ جليل الشَّأن، مشحونة بجميع أنواع الأمراض الفتَّاكة، ولا مستشفى ولا طبيب ولا دواء فيها"[١]. إنَّها وضعيَّة في حاجة إلى دراسة وتحليل، ومعالجة سريعة، وهذا ما قام به سليمان الباروني؛ إذ خطَّط لإنشاء مستشفى في عُمان، قال: "وإنِّي عازم على إنشاء المستشفى بإعانة الله، وربمَّا أختار له مكانًا غير سمائل، أحسن هواء، فإنَّ حاجة البلاد إلى مستشفى وطبيب أشدُّ من كلِّ شيء"[٢]. والخطوات التي قام بها الشيخ الباروني في هذا المنحى هي:

- اقتصد في نفقاته على المدرسة ليوفِّر المبالغ لبناء المستشفى. قال في رسالة إلى الشَّيخ سليمان اللَّمكي في زنجبار: "سأعمل جهدي في الاقتصاد، وأستعين به على بناء مستشفى قريب من المدرسة، فإنَّ البلاد العُمانيَّة جمعت جميع أمراض الدُّنيا، ولا دواء ولا طبيب"[٣].

---

١) سليمان باشا الباروني وحضوره في الثَّقافة العُمانيَّة، مج٢، ، ص: ٦٠.
٢) المرجع نفسه.
٣) المرجع نفسه.

- وضع خطَّة لجلب أطبَّاء من خارج عُمان. وقام فعلا بإقناع بعض الأطبَّاء بالقدوم إلى عُمان للعمل في ميدان الصِّحَّة فيها، لكنَّه لم ينجح في هذا المسعى إلَّا قليلاً؛ فمَنْ قصده كان متخوِّفًا من جوِّ عُمان، قال: "رغَّبتُ الأطبَّاء هنا للوصول إلى عُمان للتَّداوي والرِّبح، فلم يرغبوا؛ لعلمهم بعدم استعداد البلاد، وفقدان معدَّات الرَّاحة"[١].

لم يستسلم الباروني للمعيقات، فواصل العمل على توفير أطبَّاء، فكانت منه محاولات، لم يكتب لها النَّجاح لأسباب صحِّيَّة وأخرى دينيَّة. فجاء طبيب، لكنَّه لم يبدأ عمله؛ لأنَّه أصيب بحمَّى، ثمَّ توفِّي على إثرها. كما تمكَّن من الحصول على موافقة بعثة طبِّيَّة أمريكيَّة للعمل في سمائل، إلاَّ أنَّ هذه البعثة الطِّبِّيَّة التي قدمت من مسقط سرعان ما أخرجت من داخليَّة عُمان؛ لأنَّها تعدَّت مهمَّتها الصِّحيَّة إلى العمل التَّنصيريِّ[٢].

ومهما كانت النَّتيجة، فقد سعى الشَّيخ الباروني لإصلاح قطاع الصِّحَّة؛ بصفته وزيرًا مفوَّضًا من الإمام الخليلي؛ ويحسب له هذا جهدًا كبيرًا في تطوير الحياة في عُمان.

نشاط الباروني في عُمان لدى الصحف والباحثين:

من الذين كتبوا عن شخصيَّة سليمان الباروني وجهوده في إصلاح الحياة العامَّة في عُمان بعامَّة، وفي دولة الإمام الخليلي بخاصَّة، الدُّكتورة عائشة يَطو. وخصَّصت مجلَّة "المنهاج" لأبي إسحاق اطفيَّش صفحات عديدة، وفي عدَّة أعداد، لرصد نشاط سليمان الباروني في عُمان، وعن دولة عُمان، شارك في كتابتها كتَّاب عديدون[٣]. كما اهتمَّت الصِّحافة اليقظانيَّة كثيرًا بأعمال الشَّيخ سليمان الباروني في عُمان[٤]. فكان الشيخ أبو اليقظان يتابع باهتمام كبير التَّطوُّرات التي حصلت

---

١) المرجع نفسه.

٢) ينظر سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، ج٢، ص: ٦٨ - ٧١.

٣) "ملامح شخصيَّة سليمان الباروني باشا من خلال مجلَّة المنهاج"، سليمان باشا الباروني وحضوره في الثَّقافة العُمانيَّة، مج١، ص: ٤٨ - ٦٨.

٤) لمزيد من التَّفاصيل عن النَّشاط الذي سجَّلته الصِّحافة اليقظانيَّة ينظر: محمَّد بن قاسم ناصر بوحجام: التَّواصل الثَّقافي بين عمان والجزائر، ط١، مكتبة الضَّامري للنَّشر والتَّوزيع، السِّيب، سلطنة عمان، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص: ٨١ - ٩٢.

في عُمان، ولاسيما ما كان يقوم به الباروني في السَّلطنة والإمامة. وممَّا نشر في هذا المجال: "سليمان الباروني يعينٌ وزيرًا لمملكة عُمان، تطوُّر عظيم في عُمان"، جاء في آخر المقال: "وبلسان القطر الجزائري عمومًا ووادي ميزاب خصوصًا، يرفع "وادي ميزاب" على كاهل التَّبجيل والاحترام إلى عظمة الإمام وعطوفة الشَّيخ الباروني وبلاد عُمان مراسيم التَّهاني الفائقة بهذا التَّطوُّر العظيم، ويرجو لهم من الله تعالى التَّوفيق والتَّسديد إلى أن يبلغوا بالعرب والبلاد العربيَّة قمَّة المجد والفخار، حتَّى ترفل في حلل الجلال والكمال"[1].

ومن مقال "النَّهضة العُمانيَّة الحديثة"، نقتطف ما يأتي: "هبَّ الشَّعب العُماني في جملة الشُّعوب العربيَّة الشَّقيقة في هذه السَّنوات الأخيرة إلى الإصلاح والنُّهوض، وإدخال النُّظم العصريَّة الجديدة، التي لا تخرج عن دائرة الإسلام إلى داخل البلاد، وقد أنبأنا في وقته عمَّا قامت به وتقوم به حكومة عظمة الإمام الخليلي من الإصلاحات العامَّة بتدابير وزيرها الأكبر الشَّيخ سليمان الباروني، ولا ننسى ما أزمعت عليه حكومة مسقط من إدخال كثير من الإصلاحات في بلادها"[2]. "وقد كان من التَّأثير العظيم في الأمَّة العُمانيَّة وجود صاحب السَّعادة العلاَّمة الشَّيخ سليمان الباروني، وهو من ذوي الحصافة والإدراك السَّامي، الذين خبروا الدَّهر وعرفوه، وسبروا أغوار السِّياسة، وتقلَّبوا في أطوارها. وأصحاب الصَّحائف الجليلة والمواقف الخطيرة، نفوسهم فطرت على نفخ روح اليقظة وتحريك السَّواكن من النُّفوس إلى العمل في مناهج الحياة"[3].

ونختم الكتابة عن علاقة الإمام الخليلي بالشَّيخ الباروني بما سجَّله الأستاذ سالم البوسعيدي عن ألمعيَّة الإمام وفراسته، وحسن تفكيره وتدبيره؛ للنُّهوض بدولته، وذلك باختياره الشَّيخ الباروني أمين سرِّه ووزيره في تسيير شؤون الدَّولة: "إنَّ أبطال الحرب كثيرون، والفقهاء والدُّعاة والمعلِّمون كثيرون، ولكنَّ البيئة والجماعة تفتقد

---

١) جريدة وادي ميزاب (أبو اليقظان)، الجزائر، ع: ٤: ٢٢/ ١٠/ ١٩٢٦م.

٢) المصدر نفسه، ع: ٧٩: ٢٠/ ٤/ ١٩٢٨م. نشرت عدة مقالات في صحافة أبي اليقظان عن نشاط الشَّيخ سليمان الباروني، وبخاصة جرائد وادي ميزاب والنُّور والأمَّة، من جملة الدِّراسات الجادَّة التي كشفت عن شخصيَّة الشَّيخ الباروني من خلال نشاطه في عمان، وأبرزت حضوره القويَّ في الثقافة العُمانيَّة بحث د. علي بن هلال العبري، (حضور الشَّيخ سليمان باشا الباروني في الثَّقافة العُمانيَّة، أدبيَّات زيارته لبلدة الحمراء، نموذجا)، سليمان باشا الباروني وحضوره في الثَّقافة العُمانيَّة، مج٢، ص: ١٥٣ – ١٧٧.

٣) مجلَّة المنهاج، م١، ج٣، ص: ٣٥٢.

الكتابة والكُتَّاب؛ ولهذا استغلَّ (الإمام الخليلي) زيارة الشَّيخ سليمان الباروني، المكافح اللِّيبي الإباضي، استغلَّ زيارته لعُمان بدعوة من السُّلطان (تيمور) حيث يدعوه الإمام لزيارته.

وفي أوَّل جمعة من ربيع الأوَّل سنة ١٣٤٤هـ ألقى الرَّائد والزَّعيم البارونيُّ باشا خطابًا فخمًا وقصيدة رائعة بين يدي الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، إمام الدِّيار العُمانيَّة الدَّاخليَّة، أفرغ فيها آراءه السِّياسيَّة إزاء المشاكل الرَّاهنة كتوجيهات لعظمة الإمام الخليلي، ليتوخَّاها في سياسته الدَّاخليَّة والخارجيَّة، وكمنهاج للسَّير بدولته إلى الأمام. كما ألقى قصيدة حثَّ فيها على الوحدة، ونفَّر وحذَّر من التَّفرقة، وهي قصيدة ليت الإمام والسُّلطان أخذا بها، وهي تدلُّ على وعيٍ حضاريٍّ متقدِّمٍ للشَّيخ الباروني.

ويكلِّفه الإمام برئاسة هيئة كبار العلماء والرُّؤساء (رئيس وزراء)، حين يدرك الإمام بفطرته حاجة المجتمع الجديد الذي يبنيه الإسلام إلى من يحفظ تراثه وتعاليمه. فلماذا إذن لا يكون واحدًا من الذين يأخذون على عاتقهم حفظ هذا التُّراث، وتعليم الأجيال؟ أجل. هذا دوره الذي هيأته للقيام به مواهبه، وعليه أن يقوم به في غير توانٍ. وهكذا راح يكرِّس نفسه ودولته بيد الباروني. ومن أجل هذا أعطى الباروني كلَّ الصَّلاحيَّات: صلاحيَّات الأمر والنَّهي وكلَّ شيءٍ"[١]. قال الشَّيخ سليمان مخاطبًا الإمام الخليلي[٢]:

فاعذُرْ، ففي نصحي مديحٌ كامل ... وعليك يا قطبَ الشُّراةِ ثناءُ
أوْلَيْتَني ما لَمْ أكُنْ أهلاً له ... والفضلُ منك سعادةٌ ورضاء
دُمْ يا إمامَ المسلمين مُؤَيَّدًا ... منصورَ جُنْدٍ، حوْلَكَ الكُبَراء
ما ابن البروني ساح في أقطارها ... وعليه من دول الصَّليب جُفاء

هذه الأبيات، بل القصيدة كلُّها، تبرز علاقة الباروني بالإمام الخليلي، هذه العلاقة المبنيَّة على الاحترام المتبادل، والثِّقة الكاملة بينهما. كما تكشف عن روح

١) البوسعيدي، سالم: صنَّاع التَّاريخ العماني (حكايات الفرسان في صناعة تاريخ عمان)، ط١، مكتبة الضَّامري للنَّشر والتَّوزيع، السِّيب، سلطنة عمان، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣ م، ص: ٥٧٨ - ٥٨٠.

٢) مجلَّة المنهاج، م١، ج٥، ص: ٣٥٥.

المسؤوليَّة والجرأة والشَّجاعة والإخلاص والصِّدق، وغيرها من الأخلاق التي ميَّزت الرَّجلين وتعطي صورة مكبَّرة عن شخصيَّتَي الرَّجلين المستقيمتين القويَّتين؛ رجل ينصح ويصارح، ورجل يتقبَّل النَّصيحة والرَّأي ويعمل بهما.

خاتمة:

إنَّ العلاقة بين الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي والشيخ سليمان الباروني كانت علاقة ثقة وتقدير واحترام وتحميل مسؤوليَّة في العمل البنائي بين الرَّجلين؛ كلٌّ واحد يثق في الثَّاني، ويقدِّر جهوده، ويحمِّله مسؤوليَّة القيام بشؤون البلد. وقد استقبل العُمانيُّون الشَّيخ سليمان الباروني استقبالا كبيرًا ومتميِّزا؛ إذ رأوا فيه الرَّجل العظيم الذي يمكن له الإسهام في تطويرهم وإصلاح أحوالهم؛ لما يملكه من مؤهِّلات الزَّعامة، وسمات الرُّجولة، ومواصفات القيادة. وقد وصفه العُمانيُّون بأنَّه العالم الشَّرعي، والسِّياسي المحنَّك، والدِّبلوماسي الماهر، والحربي الهائل، المخلص لله ولرسوله وللمؤمنين.

والشيخ الباروني نفسه كان يرى عُمان وطنًا له، لها عليه فضل احتضانه بعد مطاردات عاشها ممَّن يكيد له ويريد أن ينغِّص عليه حياته؛ لذا التزم لها بتقديم كلِّ ما يملك من جهد وطاقة، علمًا وثقافة وسياسة وخبرة، بعد أن كلَّفه الإمام بالوزارة، وقد رأى فيه وأدرك بفطرته حاجة المجتمع الجديد له، وهو يسعى لبنائه بناء صحيحًا.

إن إقامة الشَّيخ سليمان الباروني في عُمان ونشاطه وتحرُّكاته في مختلف الأماكن فيها، وجولاته وصولاته في مختلف المجالات، تركت بصماتها في الحراك السِّياسيِّ والاجتماعيِّ والثَّقافيِّ في المجتمع العُمانيِّ. ونظرة الشيخ الباروني لتنظيم الدَّولة كانت نظرة صائبة في كثير من جوانبها، وتدلُّ على شخصيَّة قياديَّة فذَّة، تستطيع تدبير الشُّؤون وتسييرها في وجهها الصَّحيح. وقد عمل الشيخ الباروني بجد وحماسة من أجل تطوير المؤسَّسة الحكوميَّة في عُمان، واجتهد في تنفيذ مشروعات حيويَّة أسهمت في بناء الإنسان العُماني، الذي يؤهل لتأسيس دولة تستجيب للفعل الحضاري، وتواكب متطلَّبات العصر، وتتمتَّع بقابليَّة لاستشراف المستقبل. وكان نشاطه في عُمان مكثَّفًا ومهمًّا، أسهم كثيرًا في تطوير الحياة فيها، حتَّى وإن لم

يتحقَّق كلُّ ما كان يرغب فيه، ولم يصل إلى مبتغاه كما كان يخطِّط ويدبِّر، فبين المرغوب والممكن مسافات ومعيقات.

وتعدُّ المرحلة العُمانيَّة في حياة الشَّيخ الباروني إحدى المراحل التَّاريخيَّة المهمَّة في مسيرته الجهاديَّة والفكريَّة والإصلاحيَّة. فقد أسهمت تلك المرحلة في تقوية الصِّلات الدِّينيَّة والفكريَّة بين المشرق والمغرب العربي الإسلامي، فضلا عن تعزيز أواصر اللُّحمة والتَّعايش السِّلمي بين الأمَّة الإسلاميَّة والوقوف في وجه الأطماع الاستعماريَّة.

ومن النتائج المهمَّة في هذه الدِّراسة الوقوف على الأبعاد الإستراتيجيَّة والحضاريَّة لعلاقة الإمام الخليلي بالشَّيخ الباروني، والكشف عن قواعد العمل الحضاري، الذي هو نتاج الكفاية والدِّراية والعناية، ثمَّ الواقعيَّة في التَّحرُّك والشُّموليَّة في النَّظرة، والمعالجة الدَّقيقة، والنَّشاط المؤصَّل المركَّز، الذي فسح للشُّورى مكانًا كبيرًا في تدبير الأمور، كلُّ هذا من نتاج قوَّة شخصيتي الرَّجلين. ثمَّ إنَّ لعلاقة الشَّيخ سليمان الباروني بالإمام محمَّد الخليليِّ دلالات خاصَّة، وسمات معيَّنة، وأبعاد كبيرة تتجذَّر في أعماق الحياة العُمانيَّة في القرن العشرين؛ بما حملته من معاني الرُّقيِّ والإصلاح والنُّهوض بالمجتمع العُماني. إن هذه المعاني نابعة من خصائص شخصيَّتي الرَّجلين العالمين العاملين بكلِّ إخلاص وصدق ودأب من أجل حياة سويَّة لعُمان، كما أنَّ العلاقة كانت نتاجًا لرغبة الرَّجلين في مدِّ جسور التَّعاون والتَّساند والتَّنسيق في العمل، وثمرة من ثمرات خلَّة الثِّقة التي أعطاها كلٌّ منهما للثَّاني للتَّحرُّك في سبيل النَّهضة والإصلاح.

المصادر والمراجع:

- أبو اليقظان، الحاج إبراهيم: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، المطبعة العربيَّة، الجزائر، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.
- بوحجام محمَّد بن قاسم ناصر: التَّواصل الثَّقافي بين عُمان والجزائر، ط١، مكتبة الضَّامري للنَّشر والتَّوزيع، السِّيب، سلطنة عُمان، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- البوسعيدي، سالم بن سعيد: صنَّاع التَّاريخ العُماني: حكايات الفرسان في صناعة تاريخ عُمان، ط١، مكتبة الضَّامري للنَّشر والتَّوزيع، السِّيب، سلطنة عُمان، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣ م.
- الشِّيباني، سليمان بن سعيد النَّفوسي: سليمان باشا الباروني أمَّة في رجل، ط١، نشر جمعيَّة الفتح، ليبيا، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
- زرمان، محمَّد، وحقاين، جمعة: سليمان الباروني، نشاطه العلميُّ والسِّياسيُّ، سليمان باشا الباروني وحضوره في الثَّقافة العُمانيَّة.
- الطَّائي، عيسى بن صالح: القصائد العُمانيَّة في الرِّحلة البارونيَّة، ط١، راجعه وصحَّحه سلطان بن مبارك بن حمد الشّيباني، نشر ذاكرة عُمان، مسقط، سلطنة عُمان، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
- العبيدي، سالم بن هاشل: سليمان باشا الباروني: علاقته بأئمة عُمان وسلاطينها وجهوده الفكريَّة والإصلاحيَّة.